

نوابغ الفكر العربي

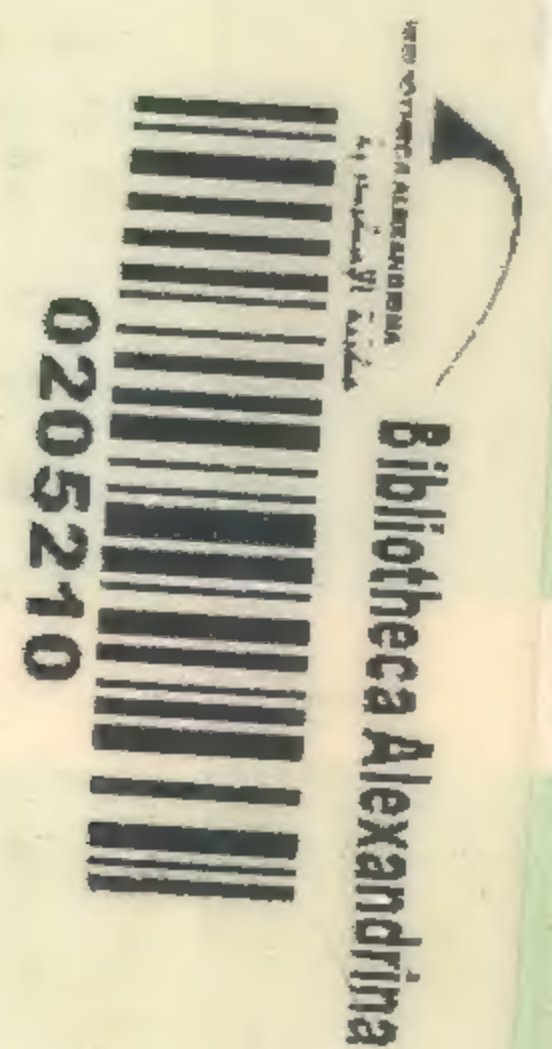
٣٢

ابن كزيب الفيزيائي

بقلم عبد الرؤوف مخلوف



دار المعارف



ابن كزيب الغزواني

نوابغ الفكر العربي

٣٢

ابن كزيب الفيزيائي

بقلم عبد الرؤوف مخلوف

« . . . ما كان بإفريقية من مشاهير
الشعراء إلا ابن رشيق القيرواني وابن شرف »
(من رسالة لإبراهيم بن
الرقيق إلى أحد أصحابه)

٥٢٩١٤

الطبعة الثانية



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

عصر ابن رشيق

١ - شخصية المغرب العلمية والأدبية

١ - لما كان ابن رشيق القيرواني مغربي النشأة والمربي - كما سندكره بعد -
لزم أن نعرض في إيجاز للمغرب ، ونبين ما كان عليه أهله من حيث الدراسات
الأدبية والنقدية وهي التي برز فيها صاحبنا ، ونقارنهم بالمشاركة.
ونعني بالمغرب شمال إفريقية والأندلس - وكلاهما غرب في الاصطلاح
يومذاك . وموجز الرأي في أمر المشرق والمغرب « إنه لم تضع حدود الإقليم
حواجز وفواصل في سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء ، فالقالي (٨٢٨٨ -
٨٣٥٦) الذي نشأ في أرمينية وتأدب ببغداد علم وأنتج في أسبانيا « « وحياة المتنبي
كان مجالها بين العراق وسورية ومصر وفارس . وهذا يبين إلى أي مدى تشابهت
إذ ذاك في جميع البلدان نظم الحياة الأدبية وشروطها » (٢)

فإذا نظرنا إلى المغرب في ضوء هذه الحقيقة رأينا له من وضعه الجغرافي ،
بين العرب المستقرين في موطنهم الأصلي حيث المشرق ، وبين العرب النازحين
إلى موطنهم الجديد حيث الأندلس ، مكاناً آتراً ، ذلك أنه صار لهذا الموضع
الطبعي محط جميع العلماء والأدباء .

فالراحلون من المشرق إلى الأندلس ، والآيرون من الأندلس إلى المشرق
يمرون بالمغرب . بل كثير من هؤلاء وأولئك حطوا رحالهم في القيروان ، مدينته
الكبرى قبل ابن رشيق وإلى أيامه ، مدينة العلم والأدب وبغداد المغرب .

فهذا أبو الفضل عبد الواحد الدارمي البغدادي يقدم رسولا من قبل القائم بأمر الله العباسي ، إلى المعز بن باديس أمير المغرب وحاكمه ، في مهمة تتعلق بشئون الحكم والسياسة ، فتحلوه القيروان ويقيم بها ، وينتظم في سلك رجال المعز الأدباء ، ثم لا يعود إلى بغداده .

وهؤلاء هم شعراء الأندلس يتزحون من أندلسهم ليستقروا في رحاب ذلك الأمير الذي يبذل في تكريم الشعراء ما لا يكاد العقل يصدقه فيكون من وراء ذلك كله أدب جم وعلم غزير .

٢

ومع إيماني بتأثير البيئة في إنتاج الأديب من شعر ونثر ، فلاني أرى أن ذلك التأثير لا يتضح في العلوم التي يستوى أمامها الناس ، والتي لا تختلف كثيراً باختلاف البيئات والأزمان ، وإنما يتضح في الفنون إذ هذه تنطبع فيها فوق شخصية الفنى صورة المكان والزمان بخواصهما .

وابن رشيق وإن يكن شاعراً فهو عالم حين يخوض في حديث النقد والأدب ، وسنرى بعد إلى أي حد نضحت في إنتاجه بيئته وعصره .

ثم علماء المغرب وأدباؤه كانوا ينظرون إلى المشرق ورجالها على أنهم الأب الروحي لهم ، وتقضى سنن الطبيعة وقوانينها المقررة بأن « الأدنى يأخذ عن الأعلى »^(١) فلا عجب أن يتمنى المغربيون لو كان في المشرق مقرهم ومطلعهم . وهذا أبو محمد علي بن سعيد بن حزم (٥٤٥٦هـ) يبكي حظه أن كان غريباً أندلسياً فيقول :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكرى النهب

(١) تيارات أدبية ص ١٢٥ - ١٢٧ .

ولى نحو أكتاف العراق صباية ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب^(١) ،
وما يصدر هذا الشعر إلا عن يكون الشرق في نظره ، وفي واقع الأمر ،
أثبت شأناً وأرسخ قدماً في العلوم والفنون والآداب .

٣

« وكان لا يظهر كتاب علم أو ديوان شعر لناطقة من نوابغ العرب في
الشرق إلا تهاداه أكابر الأندلس وعلماءه ، واستنسخوه وتداولوه »^(٢)
يقول الدكتور أحمد ضيف - رحمه الله . « وجدنا ظاهرة التقليد للمشرق
واضحة جلية ، إذ تصاغ الكتب الأدبية على يد الأندلسيين على شكل الكتب
الأدبية عند المشاركة ، ويصاغ العقد الفريد على شكل عيون الأخبار ؛ ويراه
الصاحب بن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت إلينا »^(٣)
ويقول ابن خلدون « وبالحملة فالمشاركة على هذا الفن - يريد البيان -
أقدر من المغاربة »^(٤)

ويقول ابن بسام : « إن أهل هذا الأفق - يريد الأندلس - أبوا إلا
متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ،
حتى لو نعت بتلك الآفاق غراب ، أو طن بأقصى الشام والعراق ذباب بلحشا
على هذ صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً . »^(٥)

ويزيد على ذلك ما يكشف عن رغبة أهل المغرب في مجارة أهل المشرق
أو الزيادة عليهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً فيقول : « فغاضني منهم ذلك ،

(١) المعجب ص ٤٨ .

(٢) منهل الورد - ٣ ص ١٨٢ .

(٣) مقالة للدراسة بلاغة العرب ص ٣٠١ .

(٤) مقالة ابن خلدون ص ٦٤٦ .

(٥) الذخيرة - القسم الأول مجلد ١ ص ٢ .

وأنفت مما هنالك ، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلة ، وتصبح بحاره
ثماداً مضمحلة ، وليت شعري من قصر العلم على بعض الزمان ، واختص أهل
المشرق بالإحسان (١)

والأمر قريب من هذا في الحياة السياسية فالناصر يلقب نفسه بالخليفة ،
وأمرء الطوائف يلقبون أنفسهم بالرشيد والمأمون والمتوكل والناصر والمنصور والمعتمد
والمعتضد حتى يقول ابن شرف :

مما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالمهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد (٢)
وهكذا كان احتفاء المغاربة بالمشاركة وإكبارهم لهم كإكبار بعض المشاركة
اليوم لأهل الغرب ، حتى لكان همّ أحدهم أن يقال عنه إنه يشبه أحد رجال
المشرق . يقول الثعالبي في حديثه عن ابن دراج « كان بصقع الأندلس كالمتنبى
بصقع الشام » (٣)

وقد كانت الكتب التي تؤلف في الشرق تنقل إلى الغرب بمجرد أن يبيعها
أصحابها . يقول صاحب معجم الأدباء : « ولعل من الغريب أن يعرف القارئ
أن كتابي البيان والتبيين ، والتربيع والتدوير ، نقلًا في حياة الجاحظ إلى
الأندلس » (٤)

ولا مانع عندي من القول بأنه كانت هناك بعثات تفد من المغرب على
المشرق ، وليس الأمر أمر فرد ، ولكنه أمر جماعات ، جاءت إلى المشرق
تنهل من موارده ، وتأخذ عن علمائه ، ويكفي لصحة ذلك وتأكيده أن يعقد
ياقوت الباب الخامس من كتابه معجم الأدباء « في التعريف ببعض من رحل

(١) المصدر السابق - الصفحة نفسها .

(٢) أبو الفدا تحت حوادث سنة ٣٥٠ هـ .

(٣) اليتيمة ج ٢ ص ٩٠ .

(٤) معجم الأدباء ج ٦ ص ٧٦ .

إلى بلاد المشرق الزاكية العرار والبشام ، ومدح جماعة من أولئك الأعلام ،
لشامة وجنة الأرض دمشق الشام — ويقول — اعلم أن حصر أهل الارتحال لا
يمكن بوجه ولا بحال ، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب ، ولو
أطلقنا عنان الأقلام لطال الكتاب وكثر الكلام^(١)

ومع أن ياقوتاً لا يطلق للكلام العنان ، فإن حديثه عن هؤلاء المبعوثين
يستغرق الجزء السادس والجزء السابع من الكتاب — ولا غرابة في أن يتجه الفرع
إلى أصله ، ويعاود الطير الحنين إلى دوحه .

٤

وبعد فن المفروض ، إلى أن يتم التحقيق ، أن ابن رشيق لم يختلف عن
أهل عصره ، ولم يخرج على قوانين الحياة ، وأن يكون تأثر بالمشاركة في تناوله
الأدب ناقدًا ومؤرخًا وبلاغيًا ؛ ويكون هو نفسه بذلك دليلاً على أن المعارف
الإنسانية تتشابه إلى حد كبير برغم اختلاف البيئات ، ودليلاً كذلك على أن
اللغة حين تسود في جهات كثيرة لا تختلف في قواعدها وقوانينها وإن اختلفت
في لهجاتها وموضوعاتها ، لا سيما إذا كانت تعنص من ذلك الاختلاف بكتاب
مقدس تدور حوله ، ومعدل حصين تأوى إليه . واللغة العربية من هذا القبيل ،
فهي مرتبطة بالقرآن الكريم ، ذلك الكتاب الذي لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إنه
كان الملهم لكثير من البحوث اللغوية على اختلاف مناحيها ، وكان هم العلماء
المحافظة على سلامته ببيان طرق استعمال لغته ورسم قواعدها ، وحد حدودها ،
وتوضيح « المقتضيات التي يتطلبها مبدأ (تنقية اللغة) »^(٢) وقل أن تجد كتاباً
في علم من هذه العلوم — علوم اللغة — لم يتشفع مؤلفه إلى القراء فيه بمقدمة

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٥ .

(٢) العربية — يوهان فك ص ٩٠ .

يوضح فيها ما لذلك العلم من العلاقة بالدين ^(١) كأنما وضعت المعارف اللغوية جميعها لخدمة الدين .

٥

والمتبع لابن رشيقي في آثاره يرى أنه كثير النقل عن المشاركة، بل ليست مصادره في جملتها إلا ما قرأه من مؤلفاتهم ، ولا يكون هذا إلا عن إيمان منه بفضيلتهم ، وعرفان لمزيتهم ، بل إنه ليصرح بذلك حين يقول : « إلا أن للمشرق فضيلة ومزية » ^(٢) وذلك عند حديثه عن موارده لأبي الحسن التهامي وتصريحه بأنه سبقه .

٦

وخلاصة فكرتنا أن الأدب العربي حين احتل الأقاليم الإسلامية كان يؤثر في ثقافتها أكثر مما يتأثر هو بها . وكان يفرض نفسه على هذه الأقاليم ببسب مقوماته التي اشتقها من الدين ومن السياسة ومن الفنية ، فبقيت صورته الفصحى غالبية ، موحدة على العموم ، وهذا التوحيد حفظ عليه وحدة القالب وتقارب الفكرة وتوافق المنهج إلى حد كبير .

أما الإقليمية المحلية فيمكن أن نراها في الأدب الشعبي ، في لغته العامية ، وفي خصائصه المتباينة . ولذلك مواضعه من البسط والتوضيح في غير هذا البحث

ب — الحالة السياسية :

نشأ ابن رشيقي في المغرب الأدنى ثم انتقل آخر حياته إلى صقلية تلك الجزيرة الواقعة في البحر الأبيض المتوسط على ما سذكروه مفصلاً بعد ، ولما

(١) منهل الورد ج ٢ ص ١١٧ .

(٢) قراصة الذهب ص ٥٠ .

كان للبيئة على ما قدمت الأثر الكبير في شخصية الفرد لا سيما إذا كان شاعراً أو ناقداً فمن الحتم التعرض للحالة السياسية ، ومن مدن هذا الجزء في القديم تونس^(١) . والقيروان ، والمحمدية وهي المسيلة ، وصبرة ، إلى غير ذلك من المدن التي نجد أسماءها في معاجم البلدان القديمة ولا يزال بعضها قائماً إلى اليوم . وقد بقيت تونس بعد الفتح الإسلامي تابعة في إدارتها لولاية مصر إلى أن كان منتصف الدولة الأموية تقريباً فانفصلت عنها ، فلما كان عصر الرشيد تولى عليها إبراهيم بن الأغلب وأورث هذا بنيه ولايتها من بعده فظلوا يتعاقبون عليها حتى انتزعها منهم الفاطميون سنة ٢٩٦ هـ .

ولما استولى الفاطميون على مصر (٣٥٨ هـ) وبنوا القاهرة قاعدة لملكهم صارت تونس ولاية يتعاورها ولا تهم الذين يحكمون لحسابهم ، فولّى المعز لدين الله الفاطمي عليها قبل مسيره إلى مصر بملكين بن زيري سنة ٣٦١ هـ . فاتخذ هذا مدينة القيروان قاعدة لولايته .

وفي سنة ٣٧٣ هـ . مات بلكين الذي كان يعترف للفاطميين بالتبعية^(٢) وخلفه في الحكم ابنه المنصور الذي تولى سنة ٣٨٦ هـ . والذي قام في مقامه ولده باديس^(٣) .

وكان لباديس هذا حق تعيين العمال والولاة^(٤) في البلاد التي تخضع لحكمه ، فولّى عمه حماد بن بلكين ناحية أشير إحدى مدائن المغرب الأوسط يومئذ . فأنشأ بها قلعة حصينة ، وأقام لنفسه ملكاً داخل ملك ابن أخيه يتمتع فيه بكثير من مظاهر الاستقلال برغم اعترافه له بالتبعية ، وحماد هذا هو الذي أنشأ القلعة المعروفة « بقلعة حماد » بالقرب من بجاية وسكنها هو وخلفاؤه من بعده^(٥) .

(١) كانت كلمة تونس تطلق ويراد بها شمال إفريقية - حقق ذلك سعادة حسن حسني باشا وزير معارف تونس المعاصر وعضو المجمع اللغوي بمصر .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ ص ٧٥ .

(٣) المصدر السابق - ٣ ص ٦ .

(٤) العمال جمع عامل وهو الحاكم والوالي .

(٥) تعليق بخط حسن باشا حسني عبد الوهاب كاتب مقدمة رسالة ابن رشيق ونقد الشعر للمؤلف

ومنذ تلك اللحظة أصبح في المغرب فريقان : بنو حماد في قلعهم الحصينة بأشير ، وبنو باديس في القيروان والمهدية .

وفي سنة ٤٠٦ هـ توفي باديس وخلفه ابنته المعز^(١) الذي أعلن انفصاله عن العبيديين واستقلاله بالمغرب ، إذ خلع طاعتهم ، وخطب للخليفة العباسي في بغداد ، القائم بأمر الله ، وكان ذلك في سنة ٤٣٩ هـ^(٢) . وقال لرسول المستنصر الفاطمي العبيدي حين وفد عليه : « قل لصاحبك إن لنا ملك إفريقية قبل أن يكون للعبيديين ذكر »^(٣) . وكان ذلك بداية قيام فتن بين المعز وبين أبناء عمومته بني حماد ، إذ خلعوا هم كذلك طاعته ، وأشعل نار الفتن العبيديون الناقمون من القاهرة بما أوحوا القبائل بني هلال أن يغيروا على المعز تارة وعلى بني عمومته تارة أخرى .

وهكذا ضعف الأخوان ، وأظهر المغيرون عليهم من الجحرة ما عجز المعز معه عن دفع غاراتهم على القيروان فأشار على أصحابه أن يرتحلوا إلى المهدية وكان عليها ولده تميم من سنة ٤٤٥ هـ . أما هو فخرج إليها سنة ٤٤٩ هـ^(٤) . واحتل الثوار القيروان ، وعاثوا فيها تخريباً وهدماً وإحراقاً على جاري عادات القبائل الحمجية .

ومن ثم لحقت القيروان نكبة عدت من أكبر ما نكبت به مدينة في التاريخ الإسلامي « فاندكت بذلك معالم مدينة من أزهى وأزهر مدنيات هذه البلاد ، وفي ذلك يقول شاعر بلاط المعز ، الحسن بن رشيق :

حسنّت فلما إذ تكامل حسنّها	وسما إليها كل طرف دان
وتجمعت فيها الفضائل كلها	وغدت محل الأمن والإيمان
نظرت لها الأيام نظرة كاشح	ترنو بنظرة كاشح معيان

(١) الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٩٤ تحت حوادث سنة ٤٠٦ .

(٢) صبح الأعشى ج ٥ ص ١٢٤ .

(٣) المعجب ص ٢٠٤ .

(٤) الحلل السندسية ص ٢٣٩ .

حتى إذا الأقدار حمّ وقوعها ودنا القضاء لمدة وأوان
 أهدت لها فتناً كليلٍ مظلمٍ وأرادها كالناطح العيدان
 لو أن ثهلانا أصيب بعشرها لتدكدكت منها ذرا ثهلان^(١)
 حزنت لها كور العراق بأسرها وقرى الشام ومصر والحرسان^(٢)
 وفي المهديّة قضى المعز بقية حياته إلى أن مات سنة ٤٥٤ هـ . وحكم بعده
 ابنه تميم . وعُمر في الحكم طويلاً إذ مات سنة ٥٠١ هـ . وكان من خير الرجال
 حكماً وعقلاً وأدباً .
 - صقلية :

أما عن صقلية فقد فتحها المسلمون أيام حكم الأغالبة بأفريقية سنة ٢١٢ هـ .
 وظلت تحت حكم المسلمين حتى نزع إليها من الأفريقين جماعة في إثر
 جماعة سنة ٣٩٥ هـ . وكانت يومئذ تحت حكم جعفر بن يوسف بن عبد الله
 الكلبي ، فرحب بالنازحين أهلها ، « وأفسحوا لهم في مكان العيش ، ويسروا
 لهم أسباب الارتزاق » .^(٣)

وفي سنة سنة ٤١٧ هـ . قصد إليها ابن المعز بن باديس : عبد الله وأيوب
 فاتحين : فقتلا حاكمها ودبرا الأمر فيها . بحكمة ، وفكراً في غزو النرمان
 وأعدّوا لذلك العدة ، وأمدّهم أبوهم بأسطول ضخم ، وبينما النفوس متطلعة إلى
 نصر مبین ، هبت عاصفة على الأسطول فأغرقت ، وأغرقت معه الآمال ،
 وكانت سبباً في ضياع صقلية بعد ، وفي طمع الهلالين في ملك المعز بشمال
 إفريقية . كما اجتراً النرمان على الجزيرة ، وحاول أيوب ابن المعز أن يستردها
 منهم ، ولكن جماعة من المسلمين انضموا إلى النرمان فأفسدوا على أيوب تدبيره .
 وقرر وجوه القوم الانسحاب من الجزيرة إلى المهديّة فركبوا إليها الأسطول حاملين

(١) ثهلان : اسم جبل .

(٢) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٨٢ .

(٣) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٨٢ .

معهم جميع من رأى الانسحاب من الجزيرة من خاصة القوم وأعيانهم وعامتهم ،
وكان ذلك سنة ٤٦١ هـ . وبذلك خلا جو الجزيرة للترمان فأطلقوا فيها أيديهم .

* * *

ذلك مجمل ما كانت عليه حالة العصر السياسية في شمال أفريقية وفي
صقلية أيام ابن رشيق ، وسرى كيف كان الاطمئنان بالحياة في القيروان ثم
الاضطراب الذى أصابها وأصاب المنطقة كلها ، — كان — ذا تأثير فيه —
وهكذا تعمل السياسة في حياة العلماء والأدباء ، يتأثرون بها ، ولا يعتصمون منها
في الهدوء والاضطراب

* * *

د — الحالة الاجتماعية :

يمكن أن نقول إن حياة الناس في هذه الفترة كانت تتلون بلون الحياة
السياسية ، فإذا هدأت الفتن ، استقرت أمورهم وانصرفوا إلى معاشهم ،
وأقبلوا على الإنشاء والتعمير . يقول صاحب « المسلمون في جزيرة صقلية » عن
المعز وعصره : « وكانت له مدنية من أجل وأروع ما رآته البلاد الإفريقية »^(١)
وتتجلى هذه المدنية في أن كان للدولة نظام يضارع أحدث النظم في عصرنا
الحاضر ، فقد كانت هناك دواوين يقوم بالأمر فيها رجالات من أصحاب
الثقافات الواسعة « وكانت الدواوين ثلاثة ؛ ديوان الجيش ، وديوان الجباية ،
و ديوان الرسائل »^(٢) « ويتلو الجباية ديوان المراسلات أو تحرير المكاتبات
والصكوك الصادرة عن الأمير لمخاطبة عمال الجهات والولاة والقواد وغيرهم . وكان
هذا الديوان في دولة المعز منتصباً بمدينة صبرة — على نصف ميل من القيروان —
بمقربة من منزل الملك ، وهو يحتوى على أكثر من مائة كاتب بليغ كابن رشيق وابن

(١) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٧٨ .

(٢) بساط العقيق في تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٢٨ .

شرف ويرأسهم أبو الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني . مربى المعز بن باديس
وكاتب سره .^(١)

أما حين اضطربت الأمور ، واندلعت نار الفتن فإن القوم اضطربوا في
معايشهم ، واختلت حياتهم ، ونطقت بهذا ألسنتهم . وهذا تميم بن المعز الخليفة
يشكو ذلك الاضطراب وتلك الفتن وكيف تجعل العالى سافلا والسافل عالياً
فيقول :

يا دهر ما أقساك من متلون في حالتك وما أقلك منصفاً
أثروح للنكس الجھول ممهراً وعلى اللبيب الحر سيفاً مرهفاً
وإذا صفوت كدرت ، شيمة باخل وإذا وفيت قطعت أسباب الوفا^(٢)
ويقول يستنهض هم قومه ويستنفرهم للذود عن الحياض ورد المغير :
متى كانت دماؤكم تطلُّ أما فيكم بثار مستقل
ونتم عن طلاب المجد حتى كأن العزم فيكم مضمحل
فهذا الشعر ، مهما تكن مرتبته الفنية ، بصور لنا حياة القلق التي اعتورت
البلاد في هذه الفترة من حياة الدولة الصنهاجية أخريات أيام ابن رشيق .

هـ - الحالة العلمية والأدبية :

وهذه نقول فيها إن ضيق رقعة البلاد ، واعتزاز المعز بالحكم ، وزهوه
بالاستقلال عن الفاطميين ، ورغبتهم في أن يظهر أمامهم - وقد استقل عنهم
وأصبحوا له أعداء - بمظهر الند ، إن لم يكن بمظهر المتفوق السابق ، ثم
ما وهبه من حب للعلم وما جبل عليه من تعلق بالأدب وأريحية للأدباء ،
نقول ، إن ذلك كله هياً فرصة طيبة لحياة علمية وأدبية نامية حية في هذه الفترة
بتلك البلاد .

(١) بساط العقيق في تاريخ القيروان وشاعرها ابن رشيق ص ٣٣ .

(٢) المسلمون في جزيرة صقلية ص ٨٤ .

(٣) طل دمه : ذهب هدراً .

قال المراكشي « وكانت القيروان هذه في قديم الزمان ، منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب ، دارالعلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ، وقد ألف الناس في أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ، ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء والمتبتلين ، كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف وكتاب ابن زيادة الله الطيبي »^(١)

ويكنى في التدليل على نهضة العلوم والآداب في هذه المدينة أن يجد ابن رشيقي - المترجم له - من شعرائها - دون غيرهم من رجالات اللغة والفقه والتفسير والحديث ، ومن أهل الزهد والتصوف إلى آخر من هنالك من رجالات العلم من يؤلفون مادة لكتاب خاص بهم هو « أنموذج الزمان في شعراء القيروان » وبرغم « أن المكتبات العمومية قد خلت منه فيما يعلم الميمنى »^(٢) فلما نجد بين دفات الكتب - لا سيما كتب التراجم - نقولاً منه كثيرة .

هذا عن الحركة العلمية في القيروان ، ولذا لا نعجب أن يرثيها محمد بن أبي سعيد المعروف بابن شرف فيقول :

تري سيئات القيروان تعاظمت فجلت عن الغفران والله غافر
تراها أصيبت بالكبائر وحدها ألم تك قديماً في البلاد الكبائر ؟

* * *

أما عن المهدية « وبينها وبين القيروان مسيرة يومين »^(٣) فإن لنا أن نسمع رأى أحد المؤرخين فيها وهو يقول : « وقد ازدان ملك صنهاجة بالمهدية كما ازدان بالقيروان . فكان فيها بلاط فاخر ، التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم وأعلام الأدب وكبار الفلاسفة والشعراء .

وكانت أيام المهدية على صغر المملكة ، وتعاقب الحروب بينها وبين

(١) المعجب ص ٣٦٦ .

(٢) ابن رشيقي للميمنى ص ٣١ .

(٣) مسالك الممالك ص ٣٦ .

(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

المهتدين أياماً مشهودة في تاريخ الفن والعلم والأدب . . . وقصدها من كل ناحية أمثال فيلسوف الأندلس . . . وكان أمير المهديّة ، تميم ، من خير الرجال عقلاً وأدباً وحسن إدارة ، ومعرفة بأصول الأدب والشعر»^(١)

وانتجع حضرته جماعة من شعراء المغرب والأندلس ، منهم أبو إسحق ابن أبي خفاجة في صباه ، وعبد الله بن عبد الجبار الطرطوسي ، وأبو الحسن علي بن عبد العزيز الحلبي المعروف بالفكيك ، وغيرهم . . . وخدمه بالشعر من أهل إفريقية جماعة أيضاً . . . ومدحه قبل هؤلاء شعراء المعز أبيه»^(٢)

و « بالجملة فإن العلم ازدهر بإفريقية في القرنين الرابع والخامس ازدهاراً لم يسبق مثله بسبب انتشار التعليم ، ومساعدة ولاية الأمر والوجهاء الذين كانوا يفرضونه على أولادهم ، ونسائهم ، وجواريتهم ، وخدمهم عملاً بأوامر الشريعة السمحاء»^(٣)

* * *

ولا يفوتني هنا أن أذكر أن قد كان للمكتبات والكتب في ذلك العهد شأن كبير . يدل على ذلك أن المعز « أهدى مرة إلى أبي بكر عتيق السوسي تسعمائة مجلد من نفائس الكتب . أرسلها إليه على رؤوس الحمالين عقب مجلس علمي ، استحسن فيه الأمير آراء ذلك الأديب »^(٤) فإذا صح هذا الخبر أو قارب الصحة فما بالناس بمكتبة الأمير إذن ؟ قالوا وأهدت جدته ، وهي حاضنة باديس والده كتباً جميلة إلى المكتبة العامة التي كانت في البيت المجاور للمحراب من الجامع الأعظم . ومن بين هديتها مصحف بخطها على رق مزوق بالذهب .»^(٥)

* * *

أما عن النشاط العلمي والأدبي في صقلية فيمكن أن تعلم أن قد نبغ فيها

(١) المسلمون في جزيرة صقلية ص ١٨٤ .

(٢) المجموعة المغربية ص ٣٠٧ .

(٣) بساط العقيق ص ٢٨ .

(٤) بساط العقيق ص ٣٩ .

مؤرخون ومحدثون ولغويون ونحويون وفقهاء لهم في الثقافة مكانتهم ، منهم ابن
ظفر الصقلي المؤرخ الأديب المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . صاحب كتاب « أنباء
نجباء الأبناء » وابن القطاع الأديب اللغوي المتوفى سنة ٥١٥ هـ . وابن حمديس
الصقلي الشاعر الذي رحل منها في ظروف سياسية أشرنا إليها وعاش في كنف
الأمير تميم بن المعز ، إلى غير هؤلاء ممن لا نطيل بذكرهم .
في هذه البيئة العلمية الأدبية الصاخبة ، وبين جدران هذه المكتبات
العامرة ، وفي بلاط المعز ، وتحت ظل ابن أبي الرجال نشأ ابن رشيق القيرواني
وعاش حتى مات ، وهذا أوان أن نفصل القول في حياته .

الفصل الثانى

ابن رشيق فى عصره

١ - نشأته وحياته : (٣٩٠ هـ - ٤٥٦ هـ)

وكلامنا فى هذا الفصل يشمل نشأته وأسرته وسلوكه فى حياته وصلاته بالناس إلى أن يفارق الحياة . وقد قضى ابن رشيق الجزء الأكبر من هذه الحياة ، والحافل بما خلد اسمه فى مدينة القيروان . تلك التى نرحب إليها فى السادسة عشرة من عمره ، على الراجح ، حيث قصدتها سنة ٤٠٦ هـ . ولم يرم عنها إلا فى سنة ٤٤٩ هـ . عندما غادرها المعز إلى المهديّة وكان صاحبنا « ممن انحسر فى زمرة المحروبة » فىكون على هذا قد قضى فى القيروان ثلاثة وأربعين عاماً .

وبرغم طول هذه المدة ، وبرغم ما كان للرجل فيها من إنتاج كثير ومن مشاركة فى الحياة الأدبية ، فإن جانب حياته فى خاصة نفسه وأهله مما يكتنفه كثير من الغموض ، لأن الذين ترجموا له لم يتحدثوا فيه إلا لماماً .

٢ - أبوه

فالمصادر التى عرضت لابن رشيق ، وأقدمها فيما نعلم - النخيرة لابن بسام المتوفى سنة ٥٤٢ هـ . لم تحمل إلينا شيئاً ذا بال عن والده إلا أن يكون اسمه وإلا أنه كان مولى من موالى الأزد^(١) . والأزد قبيلة من قحطان هاجرت إلى المغرب فيمن هاجر من العرب الذين نزحوا عن جزيرتهم .

واسم والده على ما جاء فى هذه المصادر « رشيق » ويكاد إجماع الذين ترجموا له ينعقد على ذلك ، فكلهم يقول فى التعريف به هو « أبو على حسن

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٤ .

« ابن رشيق » فكنيته أبو علي ، واسمه حسن ، واسم أبيه رشيق ، لا يشذ عن ذلك أحد إلا نسخة خطية في مكتبة تيمور تحت رقم ٩٧٩ أدب تذكر في عنوانها أنه « أبو علي حسن بن علي بن رشيق » فهي تجعل اسم والده « علياً » وليس مثل ذلك لغيرها من المخطوطات ، ولا في الترجمات ، إلا ما جاء في ترجمة يوسف البان سر كيس فقد ذكره علي أنه « أبو علي الحسن بن علي بن رشيق »

ولما كانت مخطوطة تيمور متأخرة عن مخطوطة أخرى بدار الكتب - سأثبت بعد ، أنها أصح النسخ وأجدرها بالأخذ عنها - وكان أبوه فيها (رشيقاً) وليس علياً ، وكان الذين ترجموا له - ما عدا سر كيس على هذا ، فإنني أرد ما جاء في التيمورية وفي الترجمة المتأخرة لسر كيس ، وأقرر أن اسم والده هو رشيق . قالوا وكان أبوه صائغاً علم ابنه صنعته في المسيلة ، ولكن الابن نزع إلى الأدب فنزح إلى القيروان . وكأني بصنعة الوالد قد نضجت في أسلوب الولد حين سمى كتابه في نقد أشعار العرب « قراضة الذهب » على ما سنذكره . وكان ابن رشيق راضياً عن أبيه يفاخر به أنداده الذين عيروه أنه ليس من سادات العرب ولا من العرب أنفسهم فقال لهم :

أما أبي فرشيق لست أنكره قل لي أبوك وصوره من الخشب
وقال « ما أبغى به أبا ، ولا أرضى بمذهبه مذهباً ، رضى به رومياً لا
دعياً ولا بدعياً » وهو في هذا كله يعرض بابن شرف القيرواني الشاعر الذي
عاصره ، والذي قالوا عنه إن « شرفاً » اسم لوالدته ، وليس علماً على أبيه لأنه
كان مجهول النسب .

٣ - شركاؤه في الاسم

« وابن رشيق » عَلمٌ على غير صاحبنا ، فهناك عبد الرحمن بن رشيق

الأندلسي الذي احتفل بالمعتمد بن عباد أحد ملوك اشبيلية من الطوائف ؛
وقد استضافه ابن رشيق على أنه سيده ثم لم يلبث أن جاهره بالعداء ولم يسع المعتمد
إلا أن يرضى منه بضريبة يؤديها إليه مساندة ، وبخيل يجهزها له عند الحاجة .
وأخيراً حينما أتاحت الفرصة ليوسف بن تاشفين ، استدعى ابن رشيق هذا
وحاكمه ، ثم أمر به فأسلم إلى المعتمد بن عباد ، « فنقل ابن رشيق إلى إشبيلية
وبقى فيها إلى أن دخلها المثلثون على ابن عباد فخرج من ثقافة »^(١)
وهناك أحمد بن رشيق الأندلسي أيضاً ، ترجم له ياقوت في صفحتين من
معجمه^(٢)

٤ - ولادته

يختلف المؤرخون وأصحاب الطبقات ممن عرض للحديث عن ابن رشيق
اختلافاً كبيراً في مكان ولادته ، كما يختلفون في سنّها ، وسنذكر ما وقفنا
عليه من ذلك كله لئلا نرجح منه ما نرى أن الأدلة تساندنا في ترجيححه .
ففيما يتعلق بالمكان نرى ابن بسام (٨٥٤/٢) يقول في الذخيرة : « فصل
في ذكر الأديب الكامل أبي علي ابن رشيق المسيلي »^(٣) وهكذا يطالعنا أول ما
يطالعنا بنسبة الرجل إلى المسيلة ، ثم يقول : بلغني أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها
قليلاً ثم ارتحل إلى القيروان سنة ست وأربعمائة^(٤)
وابن فضل الله العمري يقول مثل ذلك^(٥) ويصرح بأنه نقل عن ابن بسام .
ونرى القفطي (٨٦٣٨) يقول « الحسن بن رشيق القيرواني ، الفاضل الأديب ،

(١) أعمال الأعلام فيمن بويج قبل الاحتلال ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٢) معجم الأدباء ج ٣ ص ٣٤ .

(٣) القسم الرابع من الذخيرة - مصور عن مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦

ص ١٧٢ .

(٤) القسم الرابع من الذخيرة - مصور عن مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦

ص ١٧٢ .

(٥) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ج ١ ص ٢٧٧ .

الجليل القدر ، المصنف كتاب العمدة ، وجدت له ما صورته هو الحسن بن رشيق الإفريقي المعروف بالقيرواني من أهل مدينة من مدن إفريقية تعرف بالمحمدية ، وأبوه رشيق مملوك روى لرجل من أهل المحمدية من الأزد^(١) .

ثم يقول « ولد الحسن بن رشيق بالمحمدية ونشأ بها وعلمه أبوه صنعة وهي الصياغة ، وقرأ الأدب بالمحمدية ، وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم ، واشتأقت نفسه إلى التزيد من ذلك وملاقة أهل الأدب ، فرحل إلى القيروان وعمره ستة عشرة سنة - كذا - وامتدح بها واشتهر بجودة الحاطر^(٢) .

ويقول صاحب معجم الأدباء إن ابن رشيق قال في آخر كتابه الأنموذج عن نفسه :

« صاحب الكتاب هو حسن بن رشيق ، مولى من موالى الأزد ، ولد بالمحمدية سنة ٣٩٠ هـ ، وتأدب بها يسيراً وقدم إلى الحضرة سنة (٤٠٦ هـ) وامتدح سيدنا خلد الله دولته^(٣) .

ويقول ابن خلكان عن ابن بسام إنه قال « بلغني أنه ولد بالمسيلة وتأدب بها قليلاً ثم ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ ، ثم يقول : وقال غيره ولد بالمهدية سنة ٣٩٠ هـ^(٤) .

وهكذا نجد رأيين في بلده الأول ، فرأى أنه المحمدية ، ورأى أنه المهدية ، فإذا علمنا أن « المسيلة هي المحمدية والمحمدية من أعمال برقة من ناحية الإسكندرية^(٥) ورأينا ابن بسام أقدم من أرخ له بنسبه إليها في عنوان ترجمته له فيقول « على ابن رشيق المسيلي « وأن القفطي جعله : « الحسين ابن رشيق الإفريقي المعروف بالقيرواني ، ثم صرح بأن المحمدية مولده ، وأن ياقوتاً يذكر أن ابن رشيق

(١) انباه الرواة على انباه النحاة ج ١ ص ٢٧٧ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٢٧٧ .

(٣) معجم الأدباء ج ١ ص ١١٢ .

(٤) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٤ .

(٥) معجم البلدان ج ٧ ص ٣٩٨ .

قال عن نفسه في آخر أنموذجه « . . إنه ولد بالمحمدية » وأن ابن خالكان ينقل مثل ذلك ، — إذا رأينا ذلك كله — كان لنا أن نرد تلك الرواية التي انفردت بجعل ميلاده المهدية ، لأن صاحبها لم يذكر لنا مصدرها ، ولأنها تخالف مجموعة الروايات التي تقرر أن ميلاده كان في المحمدية . ويتبع ذلك أن نرد رواية المرحوم عبد الله عفيفي التي تقول « في العهد الذي ظهر فيه كتاب الوساطة ، ظهر كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني المولود بالمهدية من أعمال تونس »^(١) ونشير هنا إلى أن هذه العبارة مردودة في جملتها ، فلا ابن رشيق ولد في المهدية ، ولا العمدة ظهر في العهد الذي ظهر فيه كتاب الوساطة ، وإنما الحقيقة أنه ظهر بعده بأكثر من خمسين عاماً .

ويؤكد ما ذهب إليه أن ابن فضل الله العمرى جعله « المسيلي » ولا يكون ذلك النسب إلا بالميلاد كما قال الميمنى^(٢)

ويؤكد ذلك كله قول ابن رشيق عن نفسه في « قراصة الذهب » عند الحديث عن العكس : « وقد جمعت الصفتين في صباى جميعاً ، وكان يعجب أبا اسحق الحصرى ، وما كنت حيثئذ سمعت ما قال ابن الأعرابي ، فقلت في وادى المحمدية :

تحكى غواربه غوارب بزل جاءت بغير قوادم وهوادى »^(٣)
 فيبدو من هذا النص أنه كان صبيّاً حين قال هذا الشعر ، وأنه كان يصف به وادى المحمدية ؛ أفلا يحق لنا بعد أن نستنتج أنه كان يصف ذلك الوادى الذى نشأ فى أحضانه ؟ والذين قالوا بولادته فى المهدية لم يذكروا لنا أنه انتقل منها إلى المحمدية حتى يصف وادىها .

وانخيراً نرى فى كتاب « رايات المبرزين وغايات المميزين المنتقى من كتاب

(١) زهرات مشورة فى الأدب العربى ص ١١ .

(٢) ابن رشيق للميمنى ص ٢٤ .

(٣) قراصة الذهب ص ٣٠٧ — البزل : جمع بازل : البعير الذى طلعت أنياه .

المغرب في شعراء أهل المغرب ، تحت عنوان علماء الأدب ، المائة الخامسة قول صاحبه : « الرئيس العالم الفاضل أبو علي الحسن بن رشيق ، صاحب كتاب العمدة والأنموذج ، مولده بالمسالة وظهوره واشتهاره بالقيروان »^(١) ويرجح ذلك أن يرثى ابن رشيق قاضي المحمدية طاهر بن عبدالله وقد بلغته وفاته ، بقصيدة يقول فيها :

العَفَرُ في فم ذاك الصارخ الناعي	ولا أجيبُ بخير دعوة الداعي
فقد نعى ملء أفواه وأفئدة	وقد نعى ملء أبصار وأسماع
أما لئن صح ماجاء البريدُ به	ليَكْشُرُن من الباكين أشياعي
يا شؤم طائر أخبار مبرحة	يطيرُ قلبي لها من بين أضلاعي
ما زلت أفرع من يأس إلى طمع	حتى تربع يأسى فوق أطماعي
فاليوم أنفق كنز العمر أجمة	لما مضى واحد الدنيا بإجماع
تُوفى الطاهرُ القاضي فوا أسفا	إن لم يؤس تباريحى وأوجاعي
فللديانة فيه لبسٌ ثاكلة	وللقضاء عليه قلب ملتاغ

فأولى بهذا الرثاء أن يكون وفاء لأبناء بلدة ابن رشيق ، وبراً منه بمسقط رأسه ، المحمدية .^(٢)

والخلاف في سنة ولادته لا يقل عنه في مكانها فقال الميمنى إنه ولد سنة ٣٩٠ هـ . اعتماداً على ما قرره ابن رشيق عن نفسه في آخر كتابه الأنموذج ، وقد سبقت الرواية .

وقال حسن حسنى باشا صاحب بساط العقيق : بل ولد سنة ٣٨٥ هـ وحجته أن الرواة قالوا إن ابن رشيق مات عن اثنتين وسبعين سنة وهو في رأيه مات سنة ٤٥٦ هـ . فليكن مولده عنده سنة ٣٨٥ هـ . حتى تصح رواية الرواة

(١) مخطوط بمكتبة الأزهر ص ٢٥ .

(٢) إنباء الرواة على أنباء النحاة ص ٢٨٢ .

في عدد سنى حياة الرجل قال : « وهذا استنتاج أولى بالأخذ به من رواية الرجل نفسه » (١)

وأغرب من هذا رأى رواية القفطى التى تقول « ولد الحسن بن رشيق بالمحمدية في شهور سنة سبعين وثلثمائة » (٢) وعندى أن هذه الرواية من خطأ النساخ ، وأن أصلها « تسعين » فكتبوها « سبعين » يؤيد ذلك أن القفطى نفسه يقول بعدها عن ابن رشيق « وقال الشعر قبل أن يبلغ الحلم واشتأقت نفسه إلى التزويد من ذلك فرحل إلى القيروان وعمره ست عشرة سنة — كذا — وامتدح صاحب القيروان ابن باديس » (٣) ونحن نعلم علم اليقين من غير هذا المصدر أنه ارتحل إلى القيروان سنة ٤٠٦ هـ . وعمره يومئذ ست عشرة سنة ، ولا يكون هذا إلا وميلاده كان في سنة ٣٩٠ هـ .

وإذا كنت قد رجحت رواية ابن رشيق نفسه عن نفسه فيما يتعلق بمكان ولادته لما ساندتها من أدلة ، فإنى أرجحها أيضاً فيما يتعلق بسنة الميلاد على الاستنتاج الذى ذهب إليه صاحب كتاب بساط العقيق ، لأن صدق الرواية أو رجحانها في شطر منها يدعو إلى ترجيح صدقها في شطرها الباقي مالم يقدّم دليل على غير ذلك .

أما اعتماد صاحب البساط على « أنه لا يعقل أن يكون ابن رشيق قد اجتمع ببعض الشعراء سنة ٤٠١ هـ لأن سنه يومئذ لم تكن تجاوزت الحادية عشرة فيمكن الرد عليه بأن النبوغ لا سن له ، والشذوذ عن المؤلف هو الأصل في حياة النابهين — وابن رشيق منهم — وفي التاريخ أمثلة كثيرة لذلك ؛ فهذا صاحب معجم الأدباء يذكر أن عبد الله الأزدي الحميدي الحافظ المؤرخ

(١) بساط العقيق ص ٣٢ .

(٢) إنباه الرواة على إنباه النحاة ص ٢٧٧ .

(٣) إنباه الرواة على إنباه النحاة ص ٢٧٧ .

الأديب كان يحمل على الكتف للسمع سنة ٤٢٥ هـ وعمره خمس سنوات (١) وقريب من ذلك ما حكى عن جدار الله الزمخشري .
ونخلص من هذه الروايات إلى أن ابن رشيق ولد في سنة ٣٩٠ هـ . وليس سنة ٣٧٠ هـ . ولا سنة ٣٨٥ هـ .

٥ - أسرته

والحديث في هذا الجانب من حياة ابن رشيق يكتنفه غموض كبير ، ذلك أن أحداً من الذين عرضوا لسيرة الرجل لم يتعرض لهذه الناحية بالتجلية ، بله بمجرد الذكر في قليل أو كثير .

غير أنى برغم ذلك وقفت على أبيات له في الذخيرة ، استتجت منها أنه بنى أسرته ، وأنه ولد له ، فقد رفع إلى المعز ولي نعمته أبياتاً من شعره في أعقاب ولادة وقعت عنده وكانت المولودة بنتاً فقال :

معز الهدى لا زال عزك دانياً وزينت الدنيا لنا بحياتكا
أنتنى أننى يعلم الله أننى سررت بها إذ أمها من هباتكا
وقد كنت أرجو أنها ذو بلاغة يقوم مقامى عن بديع صلاتكا (٢)
وما نحن إلا نبت بجودك كلنا وكل نبات الأرض من بركاتكا

وإذا كان على الباحث أن يستوحى النصوص فإن هذا النص ينبئنا بأن المعز زوج ابن رشيق إحدى بجواريه ، أو أن ابن رشيق تزوج وكان صداق زواجه من هبات المعز وبعض صلاته . وأن الرجل على الرغم من تصريحه بسروره إذ أتته الوليدة أننى ، فإنه كان يود ويتمنى على الله لو أنها كانت غلاماً تكون له بلاغة أبيه فيقوم مقامه من المعز في شكره والتغنى بأياديه ونعمته عليه . وهكذا يكون ابن رشيق قد اتسعت حياته لبناء أسرة يكون فيها زوجاً له

(١) معجم الأدباء ج ٠ ص ٢٨٣ .

(٢) الذخيرة - القسم الرابع مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية رقم ٢٦٠٤٦ ص ١٧٧ .

أبناء إلى جنب ما كان له من عبث ومجون سنرى طرفاً منه .

غير أنا نعجب لابن رشيق فإنه — وهو الشاعر المرفه الحس — لا يجرى لسانه ولا ينطق شعره كثيراً بعاطفة الأبوة ولا نجد صدى الأسرة واضحاً فيما خلف من تراث أدبي ، وكأنه لم يعان من تبعات الأبناء ومسراتهم فبينما نراه يقول :

إذا ما خففتُ كعهد الصبا أبت ذلك الخمسُ والأربعونا
وما ثقلتُ كبراً وطأتى ولكن أجزّ ورأى السنين
أو يقول :

وقائلة ماذا الشحوب وذا الضنى فقلت لها قول المشوق المتيم
هواك أتانى وهو طيف أعزّه فاطممتُه لحمى وأسقيته دى
بينما يقول ذلك . ومثله كثير ، لا نرى صدى الأسرة ولا رجوع الأبناء .
ولا أمل الوالد ، اللهم إلا في الأبيات المتقدمة ، وكنا ننتظر منه شعراً كثيراً يتحدث فيه عن أسرته ؛ ولكن لعله يكون فعل وأنشأ شعراً ضاع في غمار ما ضاع له من آثار .

٦ — وظائفه وأسباب حياته :

كان حتماً أن يكون لابن رشيق مرتزق يعيش منه ، وإذا كان والده قد كفله في صغره فلما نتصور بعد أن انتقل إلى القيروان واتصل بأمرها المعز بن باديس أن يكون الأمير قد فرض له في بيت مال الدولة رزقاً ؛ ولم لا وهو يقصده منذ خرج من بلده الأول ، الحمديّة ، لا يقصد سواه ، والمعز كان يكبر الشعراء ليباهى ببلاطه وبمن يؤمه ، وهذا صاحبنا يقول^(١)

وذيالٍ له رجلٌ طحون لما نزلت به ويدٌ زجوج^(٢)

(١) العملة ج ١ ص ٢٠٣ .

(٢) الذيال : الفرس والبيت كناية عن قوته وشدة وطئه الأرض وأنه يطحن حصاها وينثره بيديه

يطير بأربعٍ لا عيب فيها اظهران الصفا منها عجيب^(١)
 خرجتُ به عن الأوهام سبقاً وقلّ له عن الوهم الخروج
 إلى الملك المعز أبي تميم أمرٌ بمن سواه فلا أعيب^(٢)
 ثم ها هوذا يمدحه بعد ، بقصائد من عيون شعره فيقول فيه من قصيدة :
 ذمت لعينك أعين الغزلان قمرأ أقر لحسنه القمران
 ومشت ولا والله ما حقف النقا بما أرتك ، ولا قضيب البان
 وثن الملاحه غير أن ديانتي تأبى على عبادة الأوثان
 يابن الأعزة من أكابر حِميرٍ وسلالة الأملاك من قحطان
 من كل أبلج أمر بلسانه يضع السيوف مواضع التيجان
 ولما بدا أن المعز رضى عن شعره وتوسم فيه النبوع ، وقربه إليه ، ألحقه
 رئيس ديوان الإنشاء ، أبو الحسن علي بن أبي الرجال — بأمر الأمير — بخدمة
 الديوان فأظهر من الكفاية ما حجب هذا فيه ، فتوثقت الصلة بينه وبين أبي الحسن
 علي ؛ حتى رفع إليه خير كتبه «كتاب العمدة»^(٣) ، ثم راح يثنى عليه كلما سنحت
 فرصة .

ويمكن أن نحدد وظيفة ابن رشيق في الديوان فنقول إنه كان الكاتب المختص
 بأمور الجيش ، وعمدتنا في هذا بيت من الشعر قاله يتحدث به عن نفسه وهو قوله
 وقد كنت كاتب جيش الأمير ومجرى الأمور على رسمها
 ويظهر أنه انقطع عن وظيفته لمطامع حديثه بها نفسه ولكن خاب في بعباده
 عن الأمير فرجع إلى مولاه يعتذر من غيبته ويقول :
 ولولا شقائي لم أغب عنك ساعة ولا رام صرفي عن حياتك صارف
 ولكنني أخطأت رشدي فلم أصب وقد يخطئ الرشد الفتي وهو عارف

(١) اظهران الصفا : حصا الأرض والعجيب صوت حوافر الحصان عليه .

(٢) لا أعيب لا أميل وعليه قول الآخر :

تمرون الديار ولم تعوجوا كلامكم على إذا حرام
(٣) ظهر الإسلام ج ١ ص ٣٠٥ .

على أنه بعد فتنة المعز وخراب القيروان ، نزع إلى المهدية وعاش سنين
 في كنف تميم أميرها ، ولعله أن يكون قال في هذه الفترة أبياته :
 أصبح وأقوى ما سمعناه في الندى من الخبر المأثور منذ قديم
 أحاديث ترويه السيول عن الحيا^(١) عن البحر ، عن كف الأمير تميم
 ولكن حياته في كنف تميم لم تنسه حياة القيروان التي يبكيها بقصيدته
 الطويلة والتي يقول فيها :

أترى اللبالي بعد ما صنعت بنا تقضى لنا بتواصل وتدان
 وتعيد أرض القيروان كعهدها فيما مضى من سالف الأزمان
 من بعد ما سلبت نضائر حسناتها الأيا م واختلفت بها مبيتان^(٢)
 أمست وقد لعب الزمان بأهلها وتقطعت بهم عرى الأقران
 فتفرقوا أيدي سبا وتشتوا بعد اجتماعهم على الأوطان^(٣)
 أما عن ابن رشيق في صقلية فلا نعرف شيئاً عن حياته يستحق أن يذكر
 إلا أنه رثى المعز بن باديس لما بلغته فيها وفاته .

٧ - ولى نعمته

ولا نغادر هذا المقام حتى نقول في صاحبه وولى نعمته القريب ابن أبي
 الرجال . فعن أمره وضع كثيراً من شعره - كما يقول هو - وإليه رفع كتابه
 العمدة ، وكان صاحبه ذلك ، رجلاً شاعراً يروى له ابن رشيق كثيراً من الشعر
 في مواطن كثيرة من العمدة ، فهو القائل .

باكر الراح ودع عنك العذل واسع في الصحة من قبل العلل

(١) الحيا : المطر .

(٢) مكلا الرواية .

(٣) سبا وسبا : اسم رجل يجمع عامة قبائل اليمن . وفي المثل « تفرقوا أيدي سبا » ضرب بهم
 المثل في التفرق لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جناتهم تبهذوا في البلاد فأخذت كل طائفة منهم طريقاً .

واغتتم لذة يوم زائل والمنايا ضاحكات بالأمل
وكأنما أشرب صاحبنا روح صاحبه فكان مرحاً فكهاً كما سنده كره بعد .
ومات ابن أبي الرجال هذا سنة ٤٢٥ هـ .

٨ - سلوك ابن رشيق

(١) وأريد بها سلوكه العام في حياته الاجتماعية والعلمية ، فأما عن الأولى فقد وضحت فيه صفات من أهمها ، أنه كان يؤثر السلام والمودة فلا يجرّ على نفسه عداوات الناس ، وإن اضطر إلى شيء من هذا اكتفى في الانتصاف لنفسه بالتلميح دون التصريح ، وكثيراً ما كان ينمى على الشعراء اندفاعهم في التصدي للحكام ، فيقول مثلاً « وأحمق الشعراء عندي من أدخل نفسه في هذا الباب - باب التعرض للحكام - وما للشاعر والتعرض للحتوف . . وإنما هو طالب فضل . . وكل شيء يحتمل إلا الطعن في الدول فإن دعت إلى ذلك ضرورة مجحفة فتعصب المرء لمن هو في ملكه وتحت سلطانه أصوب » (١)
ويقول : والشاعر أولى من كف منطقته وأقال عثرات اللسان » (٢)

ويقول :

وأخرق أكال اللحم صديقه وليس بلحارى ريقه بمسيغ
سكت له ضناً بعرضي فلم أجب ورب جواب في السكوت بليغ (٣)
وكان فيه رضا بالقليل ، ورغبة عن المجازفة ، قالوا : عرض عليه ابن شرف حين هاجر إلى صقلية أن ينزح معه إلى الأندلس فرفض وأثر المقام على الرحيل الذي يضطره لركوب بحر لا يدرى معه إلى أى غاية يسير ، وفي هذا المعنى يقول :

(١) العمدة ج ١ ص ٥٩ .

(٢) المصدر السابق ص ٦٣ .

(٣) العمدة ج ١ ص ٢١٥ .

يُعْطَى الْفَتَى فِينَالٍ فِي دَعَاةٍ مَا لَمْ يَنْتَلِ بِالْكَدِّ وَالتَّعَبِ
فَاطْلُبْ لِنَفْسِكَ فَضْلًا رَاحَتَهَا إِذْ لَيْسَتْ الْأَشْيَاءُ بِالطَّلَبِ (١)

(ب) وَيَنْمِ شَعْرُهُ عَنْ مِيلٍ إِلَى الْغُلَمَانِ ، يَعْبَثُ مَعَهُمْ ، وَيَتْلَاهِي بِهِمْ ،
صَنَعَ أَبِي نَوَاسٍ ، عَلَى قَصْدِهِ هُنَا وَإِسْرَافٍ هُنَاكَ ، وَقَدْ أُورِدَ لَهُ صَاحِبُ الْبَدَائِعِ
أَكْثَرَ مِنْ قِصَّةٍ فِي هَذَا الْبَابِ ، فَسَاقَ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا يَقْرُبُ مِنْ صَفْحَتَيْنِ
قِصَّتَهُ مَعَ صَبِيٍّ صَائِغٍ عَبَثَ بِهِ ، وَبَالَغَ فِي وَصْفِهِ ، ثُمَّ خَتَمَ الْقِصَّةَ بِشَعْرِهِ الَّذِي
يَقُولُ فِيهِ :

وَأَسْمَرُ اللَّوْنِ عَسَجَدِيَّ يَكَادُ يَسْتَمْطِرُ ابِلُهُمَا
ضَاقَ بِحَمْلِ الْعِدَارِ ذُرْعَاءَ كَالْمَهْرِ لَا يَعْرِفُ اللَّجَامَا
وَنَكَّسَ الرَّأْسَ إِذْ رَأَى كَأَبَةٍ وَاكْتَسَى احْتِشَامَا
وُظِنَ أَنَّ الْعِدَارَ مِمَّا يَزِيحُ عَنْ قَلْبِي الْغَرَامَا
وَمَا دَرَى أَنَّهُ نَبَاتٌ أَنْبَتَ فِي جَسْمِي السَّقَامَا
وَهَلْ تَرَى عَارِضِيَّهِ إِلَّا حَمَائِلًا حُمِّلَتْ حَسَامَا (٢)

وَلَسْتُ أَدْرِي ، أَغْلَامُهُ هَذَا هُوَ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ « كَانَ كَثِيرًا مَا يَنْتَابِي
غُلَامَ وَضِيءِ الْوَجْهِ ، ذُو خَالٍ تَحْتَ لَحِيَّتِهِ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَوْمًا بَعْضُ أَصْحَابِي ،
ثُمَّ أَطْرَقَ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَعْمَلُ فِيهِ - شَعْرًا - فَصَنَعْتُ بَيْتَيْنِ وَسَكَّتَ عَنْهُمَا خَوْفُ
الْوُقُوعِ دُونَهُ ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ قَالَ اسْمِعْ وَأَنْشُدْ :

يَقُولُونَ لِي مِنْ تَحْتِ صَفْحَةِ خَلْدِهِ تَنْزِلُ خَالٌ كَانَ مَسْكَنَهُ الْخَالُ

(١) يَرِيدُ أَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَنْتَالُ الْمَرْءُ الْأَمْرَ مِنْ غَيْرِ سَعْيٍ وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ وَهَذَا شَبِيهِ يَقُولُ ابْنُ
زَيْلُونَ :

مَا عَلَى ظَنِّي بِأَسْ يَجْرُجُ الدَّهْرُ وَيَأْسُو
وَلَكُمْ أَجْدَى قَعُودِ وَلَكُمْ أَكْدَى التَّمَاسِ

(٢) بَدَائِعُ الْبَدَائِعِ ص ١٦٨ .

فقلت :

حبذا الخال كامناً منه بين الـ جيد والحد رِقْبَةً وحذاراً
وأياما كان فللغلمان في حياة ابن رشيق شأن يثير الريبة ، ويبعث على
الشك في سيرته معهم ، وكيف لا ومن شعبره فيهم قوله :
إن زارني يوماً على خلوة أو زرت في موضع خال
كنت له

وقوله :

سأشكر للحمام بدءاً وعودة أيادي بيضا ما هن ثمين
جلاك على عيني عريان
وظهر قلبي من هواك (١)
إلى شعر أصرح لفظاً ، وأفحش معنى ، نمسك عن أن نذكره اكتفاء
بالإشارة إليه .

٩ - الشراب في حياة ابن رشيق :

ويظهر أن كان له ولوع بالشراب فما أكثر ما يتحدث عن الخمر ،
وعن مجالسها وندمانها كأن يقول :

قم فاسقني قهوة إذا انبعثت في باخل جاد بالذي ملكه
كأن أيدي الرياح إذ بسطت في متنه ، أظهرت لنا حبه
ويكرر هذا المعنى في موطن آخر فيقول :

غني يا مجود الخلق عندى « حتى نجداً ومن بأكتاف نجد »
واسقني ما يصير ذو البجل منها تماثماً ، والجبان عمرو بن معدى
في زمان الشباب عاجلني الشي ب فهذا أوائل الدن دردى

١٠ - توبة وندم :

ويقول وقد تقدمت به العمر وكأنا يصحو من غفوته :
 قرعت سنى على ما فاتنى ندما
 فقد رددت كئوس الراح مترعة
 من الشباب . ومن باللهو للشيب
 على السقاة وكانت جلّ مشروبي
 ومنظر عابث بالحسن والطيب
 عنه محلاة نوع غير مثقوب
 أيام تصحبني الغزلان آنسة
 هذا على أنى أعدى من الذيب
 وناهيك باعترافه الصريح في آخر هذه الأبيات بما كان عليه أيام الشباب .

١١ - دعابته :

وقد كانت فيه إلى جنب ذلك كله دعابة مستملحة لاتعلم معجبا بها ،
 فها هو ذا يقول في نفسه ، وكان أحول ، وفي الطوسي الشاعر المعاصر له ، وكان
 أعمى ، وفي محمد بن شرف ، وكان أعور :
 لا بد في العور من تيهه ومن صلف
 لأنهم يبصرون الناس أنصافاً
 وكل أحول يلنى ذا مكارمة
 لأنهم ينظرون الناس أضعافاً
 والعمى أولى بحال العور لو عرفوا
 على القياس ولكن خاف من خافا
 ومع أن الشعر للدعابة فإنه ينم عن رأيه في منافسة ابن شرف فقد رآه
 صاحب تيه وصلف وكبرياء . وكذلك كل دعابة تحمل شيئاً من عقيدة قائلها
 فيمن قيلت له .

ويقول في البغل :

أوصيك بالبغل شراً فإنه ابن الحمار
 لا يصلح البغل إلا للكبد والأسفار

كالعبد إن لم تهنه جنى على الأحرار
ما اعتاض بغلا بطرف إلا أخو إدبار^(١)

١٢ - تدينه :

ويشهد هذا كله بأن كانت في الرجل رقة ، وفي دينه ضعف ، فهو لا يتخرج من الإثم ، ولا يمتنع من أن يصرح به فيقول في بعض ما يقول :
إني لقيت مشقة فابعث إلى بشقة
كمثل وجهك حسناً ومثل ديني رقة
وليس ذلك ببدع في الشعراء فكثير منهم من هذا القبيل .

١٣ - خلقه العلمي وأمانته :

فلإذا تركنا ذلك إلى خلقه العلمي ، رأينا منه أمانة وتواضعاً ، ينقل الرأي عن غيره فيصرح بذلك ويقول « وقد نقلت هذا الباب عن كتاب ابن المعتز إلا ما لا يخفاء به على أحد من أهل التمييز »^(٢) وهل يبتغي العلماء أكثر من ذلك حين يطالبون الباحث والمؤلف بذكر المصدر والمرجع ونسبة الرأي إلى قائله ما لم يكن هو صاحبه ؟

وكان متواضعاً بعلمه لا يتيه به ، ولا يُدِل بشعره ، ولا يسمو بنظره إلى فوق مرتبته ، وسيرد عليك حديث ما ناجته به نفسه من معارضة المتنبي ، وكيف كفها حين رأى أنه دون ما أرادت . واسمع إليه يقول : « وقد قلت أنا وإن لم أدخل في جملة من تقدم ، ولا بلغت خطته » ويقول : « وقد صنعت على ضعف متني وتأخر وقتي »^(٣) ويقول بعد أن يسوق كلاماً عن سعد بن مالك

(١) الطرف بكسر الطاء : الجواد .

(٢) العملة ج ٢ ص ٧٦ .

(٣) العملة ج ٢ ص ٢٢ .

ولا أدري هل هو أبو بكر بن قميثة الشاعر ، والمرقس الأكبر أم لا ، (١) ولا أدري ، كما قالوا نصف العلم .

على أن هذا التواضع لم يمنعه أحياناً من أن يشهد لنفسه « بجودة الميز ، وفرط الثبوت ، والإنصاف إن شاء الله » (٢)

١٤ - معاصروه وأنداده :

لما كانت كلمة « المعاصر » تنصرف إلى واحد من ثلاثة : رجل أدركه ابن رشيقي فأخذ عنه وسمع منه ، وجلس إليه هو مجلس المتعلم ، وهؤلاء هم شيوخه . ورجل عاصره ولم يأخذ عنه شيئاً وإنما جمعت بينهما حرفة الأدب أو أو توافق السن ، أو وحدة المشرب ، أو قصر المعز ، وهؤلاء هم أنداده .

ورجل جعل من ابن رشيقي شيخاً له يأخذ من علمه ، أو يروى من شعره وهؤلاء هم تلاميذه . أقول لما كان ذلك كذلك ، ولما كنت سأتحدث عن شيوخه عند الحديث عن مصادر ثقافته فإننا نتحدث هنا عن أنداده وتلاميذه .

وأنداده الذين ثقفوا بثقافته ، واشتركوا معه في الأخذ أحياناً عن مشيخة واحدة ، وساجلوه أحياناً قرض الشعر ، وشاركوه في تذوق الأدب ، أو ضمهم وإياه قصر المعز أكثر من أن نحصيهم عدداً ، لكن ذلك لا يحول بيننا وبين أن نتحدث عن نفر منهم .

فهذا أبو حديدة الشاعر . يقول عنه ابن رشيقي في أنموذجه : « اجتمعت بأبي حديدة الشاعر يوماً وأنا سكران فسألني عن حال المكان الذي كنت فيه فوصفته ، وأفضت في صفته إلى ذكر غلام كان ساقياً ، فقلت في عرض الكلام ولم أرد الوزن :

(١) العملة ج ١ ص ٧٠ .

(٢) العملة ج ١ ص ١٥ .

فشربتها من راحتها ٤ كأنها من وجنتيه
وكأنها في فعلها تحكي الذي في ناظريه
وقلت له أجز ، فقال :

وشمت وردة خده نظراً ونرجس مقلتيه

فقلت له أحسنت في شملك بالنظر كما سمع أبو الطيب بالبصر حين قال
كالخط يملأ مسمعاً من أبصراً (١)

وهذا خلف بن أحمد قال عنه أيضاً في أنموذجه « شاعر مطبوع تأدب
بإفريقية — وإفريقية يومئذ يراد بها تونس — وله شعر جيد ، مات بزويلة سنة
٨٤١ هـ . ومن شعره :

هل الدهر يوماً بليلى يجودُ وأيامنا باللوى هل تعود (٢)
وأولئك هم أبو لقمان الصفار ، والدركادو ، وأحمد بن إبراهيم الكموني ،
كانت لهم معه مجالس يجتمعون فيها فيطارحون الأشعار ، وفي بعض ذلك يقول
ابن رشيقي « جلست في دكان أبي لقمان الصفار — وكان يتهم في شعره — مع
جماعة من الشعراء ، وأبو لقمان والدركادو يلعبان الشطرنج ، ونحن نضحك لما
يجري بينهم من غريب المهاترة ، فقال الدركادو : أجزأبا لقمان :
حيثان حبسك في طنجور (٣) بلوأي

فقال أبو لقمان : وفحم وجهك في كانون أحشائي
فقال أحمد بن إبراهيم الكموني : أحسنت يا أبا لقمان ؛ قسيمك خير
من قسيمه ، فزهي ؛ وقال أدافع في بديع الشعر ؟ .. وهذا شعر في الهتف .. (٤)

(١) بدائع البداهة ص ٦٥ .

(٢) معجم الأدباء ج ٢ ص ٦٥ .

(٣) الطنجور والطنجرة إناء من نحاس .

(٤) بدائع البداهة ص ٤٠ .

وإذا كان من أنداد ابن رشيقي من يستحق أن نقف عنده وقفة — وإن تكن قصيرة . فذلكم هو ابن شرف القيرواني ، وكان تداً وقريباً لصاحبنا ، ومزاحماً له في مكانته عند المعز بن باديس ؛ قال ابن بسام حين ترجم له : « وبينه وبين أبي علي بن رشيقي ماج بحر البراعة ودام ، ورجح نجم هذه الصناعة واستقام ، وذهبا من المناقضة مذهباً تنازعا شراً طويلاً ، وخلداه ذكراً محمولاً ، واحتملاه — إن لم يسمع الله — وزراً ثقيلاً » ، وكان أبو علي أوسعهما نفساً ، وأمرسهما ملتصقاً . (١)

وهذا التنافس الذي كان بين الرجلين يرجح أن يكون ابن شرف هذا هو من عناه ابن رشيقي لما قال : « وفي زماننا هذا قوم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون » . (٢) ولما قال :

يا موجعي شتماً على أنه لو فرك البرغوث ما أوجعا
كل له من نفسه آفة وآفة النحلة أن تلسعا

كما يرجح عندي أن يكون ابن شرف أراد ابن رشيقي بعبارة التي يقول فيها مخاطباً أبا الريان الذي عزا إليه الحديث في رسالته « أعلام الكلام » ، يا أبا الريان لقد رأيت لك نقداً مصيباً ، ومرى عجيباً ، ولقد أرغب في أن أنال منك نصيباً فقال : النقد هبة في الموالد ، وفيه زيادة طارف إلى تالد : ولقد رأيت علماء بالشعر ، ورواة له ، ليس لهم نفاذ في نقده ، ولا جودة فهم في رديه وجيده ؛ وكثير ممن لا علم له يفتن إلى غوامضه ، وإلى مستقيمه ومتناقضه (٣) .

على أن التاريخ يسجل لنا اجتماع الشاعرين ، ابن رشيقي وابن شرف ، بحضرة المعز بن باديس ، وكيف كان المعز يثير بينهما شياطين الشعر ، يقول ياقوت : « وكان ابن شرف وابن رشيقي صاحب العملة متقدمين عنده على سائر من في

(١) الذخيرة القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .

(٢) العملة ج ٢ ص ١٧٣ .

(٣) أعلام الكلام ص ٢٧ .

جضرته ، فكان يلنى هذا تارة ، ويلنى ذاك تارة أخرى ، فتناقسا ، وتنافرا ،
ثم تهاجيا ، ولكن لم يتغير أحدهما على صاحبه بما جرى بينهما من المتناقضات .^(١)
قال ابن شرف : استدعاني المعز يوماً واستدعى أبا علي الحسن بن رشيق
الأزدى ، وكنا شاعري حضرته ، وملازمي ديوانه فقال : أحب أن تصنعا بين
يدى قطعتين في الموز على قافية الغين ، فصنعنا حالا من غير أن يقف أحدهما
على ما صنعه الآخر ، فكان الذي صنعه :

يا حبذا الموز وإسعادهُ من قبل أن يمضغه الماضغ
لأنّ ، إلى ألاّ تجسّ له فالقم ملآنُ به فارغ
سيان قلنا مأكلاً طيب فيه وإلا مشربٌ سائح

والذي صنعه ابن رشيق :

موز سريع أكله من قبل مضغ الماضغ
مأكلةٌ لاأكل ومشربٌ لسائح
فالقم من لين به ملآنُ مثل فارغ
يخال وهو بالغٌ للحلق غير بالغ

ومثل ذلك قوله أيضاً : « استخلانا المعز يوماً ، وقال أريد أن تصنعا شعراً
تملحان به الشعر الرقيق الخفيف الذي يكون على سوق بعض النساء ، فإني
أستحسنه ، وقد عاب بعض الضرائر بعضاً به ، وكلهن قارئات كاتبات ،
فأحب أن أريهن هذا وأدعي أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأمر به من
عيب عليه ، فانفرد كل منا وصنع في الوقت ، فكان الذي قلت :

وبلقيسية زينت شعر يسير مثل ما يسهّب الشحيحُ
رقيق في خدجلة رداح^(٢) خفيف مثل جسم فيه روحُ

(١) معجم الأدباء ج ١٩ ص ٣ .

(٢) بدائع البداه ١ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) الخدجلة الرداح الممتلئة المكتنزة الثقيلة المشى والعرب تحب من النساء المرأة البضة .

حكى زَغْب الخُلُود وكلُّ خَدَّ به زَغْبٌ فمِعشوقٌ مَلِيحٌ
فإن يك صرح بلقيس زجاجاً فمن حِدَقَ العيون لها صروح
وكان الذى قال ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا بها كما قد رأى من تلك من نصب الصرحا
وقد زادها الترغيب ملحاً كمثل ما يزيد خلود الغيد ترغيبها ملحاً
— يقول ابن شرف — فانتقد المعز على ابن رشيق قوله : يعيبون ، وقال له :
قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس عابه ، وهذا نقد ما فطنت له .^(١)

١٥ - حساده :

ولما ألف ابن رشيق كتابه العملة ، نال منه بعض معاصريه ، بنقدهم إياه
في بعض أبوابه ، وظنى أن كان على رأس هؤلاء العائدين ابن شرف فقال الرجل
فيهم : « وهذا باب يختلط على كثير من الشعراء ، ممن ليس له ثقب في
العلم ، ولا حذق بالصناعة ، كجماعة ممن وسم في بلدنا بالمعرفة ونسب إليها
مكذوباً عليه فيها ، كاذباً فيما ادعاه منها ، ولتعرفهم في لحن القول » .^(٢)

ويقول في موطن آخر معرضاً بهم « وكم في بلدنا هذا من الخفاث ، قد
صاروا ثعابين ، ومن البغاث قد صاروا شواهدين ، ولولا أن يعرفوا بتخليدهم
في الكتاب ، ويدخلوا في جملة من يعد خطله ، ويحصى زلله لذكرت من
لحن كل واحد منهم » .^(٣)

وليس أوجع من هذا أسلوباً ، ولا أنكى منه طعنًا وغمزاً وتعريضاً ، وسنحقق
ما كان بين ابن شرف هذا وابن رشيق لنرى أيهما أخذ عن صاحبه .

وقد كنا نود لو وصلنا كتاب الأنموذج له لنرى فيه رأيه في كثير من معاصرية ،

(١) التتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ص ٢١ ، ٩٤ .

(٢) العملة ج ٢ ص ٨٠ .

(٣) ابن رشيق للمبني ص ٤٣ .

فإنه ألفه عنهم ، ولولا بقية من الكتاب نقلتها إلينا كتب التراجم والطبقات لما عرفنا عن الكتاب شيئاً .

١٦ - تلاميذه :

وإذ قلنا في أئداده ورفاقه ، فإننا نقول كلمة في تلاميذه .
والعقل يحيل أن يكون ابن رشيقي عاش تلك الحياة المليئة بالإنتاج الأدبي والعلمي ثم لا يكون له مريدون . وإذا كانت كتب التراجم لم تكن بتسجيل هذه الناحية في حياة الرجل ، فإننا نجد في ثناياها بين الفينة والفينة تلميحات إلى أن قد كان هناك من أعجبوا بالرجل في شعره ونقده فأخذوا عنه ، وإليك من وقفنا على طرف من حياتهم فيما قرأنا .

فمنهم أبو محمد عبد الله بن يحيى بن حمود الخزيمى ، يروى كثيراً من شعر ابن رشيقي ، فيعده الميمنى في ترجمته له من تلاميذه ، مع شكه في رواية الشعر ، « أيرويه عنه بواسطة - كذا - أم بدونها » .^(١)

ومنهم أبو عبد الله الصقار الصقلى ، كان في صقلية وكانت تأتيه أشعار ابن رشيقي ، فتأقت نفسه إلى لقائه ، فلما أتيحت له فرصة الرحلة إلى القيروان وبلغها قصد صاحبه ، وسمع منه شعره ، وحكى عنه فقال : « كان بالقيروان غلام وضىء ، وكان يختلف إلى أبى على حسن بن رشيقي ، فكان يحذره من المخالطة ، فخرج يوماً يتتزه مع جماعة ، فأشيع عنه ما ينكر ، وبلغ أبا على ذلك فقال بديها :

يا سوء ما جاءت به الحال إن كان ما قالوا كما قالوا
ما أحذق الناس بصوغ الحنا صيغ من الخاتم خلخال^(٢)
وإذا كان الميمنى لا يذكر غير هذين الرجلين بأسلوب لا تقطع معه

(١) ابن رشيقي الميمنى ص ٤٣ .

(٢) بدائع البداه ص ٢٠٦ .

بأنهما تتلميذا على ابن رشيق ، فإننا نذكر على اليقين تلميذا يصرح هو نفسه بأن ابن رشيق شيخه ، ذلكم هو أبو عمر عثمان بن علي بن عمر الخزرجي الصقلي ، ألف مختصر العملة ، ويقول عن شيخه : قال لي من قصيدة أولها :

دمع رأى برق الحمى فتحذرا وجوى ذكرت له الحمى فتسعرا
ولا يكون قال له ذلك الشعر إلا وهو يتأق عنه ، ويسمع منه .

ولا نشك في أن كان لابن رشيق غير هؤلاء ، تلاميذ كثير ، ولكن الوثائق غير قائمة في أيدينا بأسمائهم .

١٧ - وفاة ابن رشيق :

(١) وكما اختلف المؤرخون في سنة ولادته فقد اختلفوا في عام وفاته ، واختلافهم ههنا أكبر ، وكذا الشأن في مكانها .

فرأى صاحب معجم الأدباء أنه « مات بالقيروان سنة ٤٥٦ هـ » .^(١) عن « ست وستين سنة »^(٢) وبهذا قال السيوطي ، ناقلا عنه ، وهو ناقل عن ابن رشيق كما يقول من كتابه الأنموذج ، والخلط واضح في قوله « ذكر ابن رشيق هذا نفسه في كتابه الذي صنفه في شعراء عصره ووسعه بالأنموذج »^(٣) إذ كيف يذكر ابن رشيق - أو غيره ، سنة وفاته أو مكانها ، ولكنه اضطراب في العبارة نقله السيوطي عن صاحب المعجم بلا تحقيق .

وأما صاحب شجرات الذهب ، فيقرر أن الرجل مات سنة ٤٥٦ هـ . يقول تحت حوادث هذه السنة عبارته « وفيها - مات - ابن رشيق القيرواني - أحد الأدباء البلغاء ، وله التصانيف الحسنة » .^(٤)

(١) معجم الأدباء ج ٨ ص ١١٠ .

(٢) المصدر السابق ص ١١١ .

(٣) معجم الأدباء ج ٨ ص ١١٢ .

(٤) شذرات الذهب ج ٣ ص ٢٩٤ .

وذكر ابن خلكان أنه مات سنة ٤٦٣هـ^(١) ثم عاد فقال : « ورأيت بخط بعض الفضلاء أنه توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة بمازر »^(٢) وعقب على هذه الرواية بقوله : « والأول أصح » وإن لم يذكر لوجه الصحة سبباً .

ثم يعود ابن خلكان فيذكر رواية أخرى توافق روايته المرجوحة ولا تختلف عنها إلا في وقتها إذ يذكر فيها السنة والشهر والليلة بالحروف فيقول « وقيل إنه توفي ليلة السبت غرة ذي القعدة سنة ست وخمسين وأربعمائة »^(٣) وكأنما يحس من نفسه الحرج في ترجيح غير هذه الرواية ، وفي تصديره لتلك بكلمة « قيل » المشعرة بالشك ، فيختم حديثه بقوله « والله أعلم » .

وأصحاب دائرة المعارف الإسلامية لا يقطعون في المسألة برأى وإنما يسوقون الروایتين معاً .

أما أنا فأذهب إلى أنه مات سنة ٤٥٦هـ . لأنه هاجر إلى صقلية سنة ٤٥٣هـ . وأستبعد أن يكون مات سنة ٤٦٦هـ . فيكون عاش في صقلية قرابة ثلاثة عشر عاماً ، في الجحوى الملىء بالاضطرابات ثم لا نسمع له في هذه الفترة على طولها صوتاً ، ولا يقولن قائل يجوز أن يكون أنتج في هذه المدة وضاع إنتاجه ، لأننا نقول إن هذه الفترة مملوثة بدقائقها وتفاصيلها ، ولم نعر فيها قرأنا عنها له ذكراً . مع أننا قرأنا عن دونه مكانة ومنزلة .

ثم الرواية التي تجعل موته سنة ٤٥٦هـ . تذكر الليلة التي مات فيها والشهر والسنة بالحروف ، وقد رجعت إلى كتاب « التوقيعات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية » وعرضت عليه تلك الرواية التي رجحت والتي تجعل وفاته ليلة السبت من ذي القعدة سنة ٤٥٦هـ . فرأيت فيه أن غرة ذي القعدة من تلك السنة يوافق يوم الجمعة . فازددت بها إيماناً لأن اختلاف

(١) الوفيات ج ٤ ص ١٦٤ .

(٢) الوفيات ج ٤ ص ١٦٥ .

(٣) الوفيات ج ٤ ص ١٦٦ .

بداية الشهور العربية بيوم واحد أمر كثير الوقوع ، حتى في أيامنا تلك التي نستعين فيها على التقويم بالمراسد وما فيها من آلات مستحدثة .

ومن الغريب أن يرجح المرحوم أحمد تيمور أن وفاة الرجل كانت سنة ٨٤٦٣ هـ . من غير أن يسوق حجة واحدة تسند هذا الترجيح أو تدعمه^(١) . وساق مثل هذه الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « تاريخ الحركة الفكرية في مصر » .^(٢)

(ب) ومثل اختلافهم في سنة وفاته اختلافهم في مكانها ؛ فصاحب المعجم يذكر أنه مات بالقيروان^(٣) ، وقد أوضحت ما في روايته هذه من خلط لأن فيها استحالة عقلية . وينقل عنه السيوطي فهو مثله .

وأما ابن خلكان فيقول : « ولم يزل بها - يعنى القيروان - إلى أن هجم العرب القيروان - كذا - وقتلوا أهلها وأخربوها ، فانتقل إلى جزيرة صقلية وأقام بمازر إلى أن مات »^(٤) ثم يقول ثانية وثالثة ، إنه مات في مازر ويذكر أن مازر « قرية في جزيرة صقلية وسيأتى ذكرها في ترجمة المازري إن شاء الله »^(٥) ويقول القفطى « ولم يزل ابن رشيق على ما هو عليه من إقامة سوق الأدب . . . إلى أن هجم العرب القيروان ، وقتلوا من فيها . . . فعند ذلك فرعنها إلى ساحل البحر المغربى ، ولم يمكنه المقام هناك ، فعلى البحر إلى جزيرة صقلية ، ونزل بمازن - كذا وهى لا شك مازر - إحدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن مطلود ، فأكرمه واختصه ، وقرأ عليه كتبه ، ومن جملة ما رأته من قراءته عليه كتاب العمدة في صنعة الشعر وهو أجل كتبه وأكبرها ؛ ورأيت خط ابن

(١) ضبط الأعلام ص ٦٤ .

(٢) الحركة الفكرية في مصر ص ٢٦٤ .

(٣) معجم الأدباء ج ٨ ص ١١١ .

(٤) الوفيات ج ٤ ص ١٦٥ .

(٥) المصدر السابق ص ١٦٥ .

رشيق على نسخة منه ولم يزل عنده إلى أن مات بمازر في حدود سنة خمس وأربعمائة — كذا — ولعلها خمس وخمسين وأربعمائة — رحمه الله تعالى » (١)

وإذ رددت رواية ياقوت التي تجعل مكان وفاة الرجل القيروان ، لما أشرت إليه من استحالة قبولها عقلا ، وكذا رواية السيوطي عن ياقوت ، فإني أقرر أن ابن رشيق مات في مازر بصقلية ، ذلك أننا نعلم يقينا أنه انتقل إليها ، يقول ابن بسام : « إن بعض وزراء إشبيلية قال : جهز عباد بعض التجار إلى صقلية ، وكان ابن رشيق كثيراً ما يسمع بذكر عباد فيرتاح إلى جنبه ارتياح الكبير إلى شبابه ، فلما سمع بمقدم التاجر لزم داره وجعل يتردد عليه ويغشاه ، ويقترح عليه لقاء عباد ويتمناه ، والتاجر يعده ويمنيه ، ويقرب له ذلك ويدنيه ، حتى إذا أسمعحت الرياح ، وأمكن في ميدان البحر المراح ، ذهب التاجر لطيته ، وخلي ابن رشيق إلى أمنيته ، وأخبر التاجر عباداً بذلك ، كأنه يتبجح بما هنالك ، فبالغ عباد في نكاله ، وأمر باستصفاء أكثر ماله ، ثم رام ابن رشيق بعد ذلك ركوب البحر فحشن ملمسه ، ولم تساعد على ركوبه نفسه فقال :

البحر صعب المذاق مر لاجعلت حاجتي إليه
البحر ماء ونخن طين فما عسى صبرنا عليه (٢)

وهكذا كانت آخرة الرجل في صقلية :

وأما أنه « مات بالقيروان » فلا يكون إلا أن يكون عاد إليها من صقلية ولم ترد رواية واحدة تفيد ذلك . لا قوية ولا ضعيفة ، فلا يبقى إلا أنه مات بمازر من قرى صقلية .

والذين قالوا بموته في القيروان وهموا والتبس عليهم الأمر لما رأوه يسمى ابن رشيق القيرواني .

(١) إنباء الرواة على أنباء النحاة ج ١ ص ٢٨٥ .

(٢) الأخيرة ، القسم الرابع — المجلد الأول ص ١٧٦ بمكتبة الجامعة المصرية .

الفصل الثالث

جوانب ابن رشيق

١ - ثقافته ومصادرها :

الثقافة عند علماء الاجتماع هي طريقة الحياة في مجتمع من المجتمعات ، وأهم عنصر فيها أنها من صنع المجتمع الذي يعيشها ، وأنها تشمل كل ما هو مشترك بين أفرادها ، فطرق التسلية ، ونظم الحكم ، والعادات الدينية ، ومعايير الأخلاق وطرائق الحياة ، وكل ما يتعرض له جملة الشعب يسمى ثقافة ، وبحسب حظه منها ودرجته فيها يكون وضعه في سلم الحضارة .

أما الثقافة عند علماء الأدب فهي مقدار ما يحصله الفرد من ألوان المعرفة التي تخدم اتجاهه الفكري ، وتأتي للفرد إما من شيوخ يجالس إليهم ويتلقى عنهم ، ويروى لهم بعد أن يناقش أو يسلم بما يقولون ، وإما من شيوخ يأخذ عنهم بطريقة غير مباشرة ، وإنما بالوساطة ، ونعني بالوساطة في هذا المجال الكتاب أو الراوية إذ لم يكن في القديم غيرهما فلا إذاعة ولا صحافة ولا شيء من هذا الذي وصلت إليه حضارتنا المعاصرة . ويضاف إلى هذين المشرعين استعداد الفرد نفسه ، وما يرزقه من قدرة فطرية يستطيع بها أن يعال فيما يتلقى من الخارج أو يفهم فيه فهماً جديداً ، أو يبتكر ما لم يسبق إليه ، أو يتمثل الذي سمع ورأى وقرأ فيحيله شيئاً جديداً ، إلى غير ذلك مما تختلف القُدر في التهدي إليه بحسب ما أعدت له .

وفي ضوء هذه اللمحة ننظر إلى ابن رشيق ، فنرى أن قد كانت وسيلته في ثقافته كل أولئك ، فكان له شيوخ أخذ عنهم ، وامتدت يده إلى أكثر

ما عرفت المكتبة العربية يومئذ فقراه ، وحفظ منه ، وأبدى فيه رأياً ، فقبل ورد ، وأطرى وذم ، وعدل وتمثل ، حتى كان علمه — كما يقولون — علمين ، علم رواية وعلم حراية .

وإذ كنا بحاجة إلى ما يشهد بأنه رزق استعداداً فطرياً ممتازاً فوق ما تشهد به آثاره التي سنعرض لها بعد ، فإننا نقول إنه كان ذا شاعرية من الطراز الممتاز . وهذا أوان أن نقول في ذلك كله على تفصيل .

٢ — أساتذته :

وأريد بهم أولئك الذين تتلمذ عليهم ، وجالسهم ، وسمع منهم ، وأخذ عنهم مشافهة ومحادثة ومناقشة ، ولا أعنى من قرأ لهم ، فأولئك أكثر من أن يحصوا أو يعدوا . فمن شيوخه :

(١) أبو عبد الله التميمي محمد بن جعفر القزاز ، قال عنه الأستاذ أحمد نجاتي : « كان شيخ اللغة في المغرب ، إماماً علامة قياً لعلوم اللغة العربية ، مهيباً عند الملوك والعلماء ، محبوباً عند العامة ، وله مؤلفات في اللغة والأدب ، توفي بالقيروان سنة ٤١٢ هـ . عن نحو تسعين سنة » . (١)

وقال عنه تلميذه ابن رشيق « إنه صاحب الجامع في اللغة الذي يقارب تهذيب الأزهري » ، (٢) وله كتاب ضرائر الشعر . (٣)

وهو من أوائل شيوخ ابن رشيق ، الذين أخذ عنهم اللغة والأدب ، ولم تعد تلميذته عليه بضع سنوات ، ونقل عنه في كثير من أبواب عمده . (٤)

(ب) أبوا سامة ، ولم أقف من خبره إلا على ما قاله فيه ابن رشيق ،

(١) هامش وفيات الأعيان ج ٣ ص ١٦٣ .

(٢) معجم الأدباء ج ١٨ ص ١٠٥ .

(٣) مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١٨٣ أدب .

(٤) العملة ج ١ ص ١٤٤ ، ١٥٠ .

قال : « كان عالماً باللغة وقد عاصرته » ، ^(١) وهو وإن لم يصرح بالتلمذ عليه فإنه يروى عنه ويسأله فيجيبه .

(ح) أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي ، وترجم له الميمنى في إسهاب ^(٢) والذي يعينى في أمر هذا الشيخ ، أنه كان أحد أساتذة النقد الذين أخذ عنهم ابن رشيق فيقول في باب حد الشعر « وقال عبد الكريم : الشعر أربعة أصناف فشعر هو خير كله ؛ وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة ، والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ؛ وذلك القول في الأوصاف والنعوت ، والتشبيه وما يفتن فيه من المعانى في الأدب ، وشعر يتكسب به ؛ وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما يتفق فيها ، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ، ويأتى إليه من جهة فهمه » . ^(٣)

والنهللى قطعة من كتابه « الممتع » بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٤ مجاميع ش .

(د) أبو إسحق الحصرى القيروانى . وذكر ابن رشيق أنه أدركه وهو صبي ، وهذا القول إن صح يرجح أن الحصرى مات سنة ٤١٣ هـ . وذكر ابن رشيق أنه « أنشد بين يديه شعراً أعجبه » ^(٤) وقال عنه في الأنموذج كما روى صاحب معجم الأدباء : « كان شاعراً نقاداً ، عالماً بتزويل الكلام ، وتفصيل النظام ، يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبهاً بأبى تمام في أشعاره ؛ وتتبعاً لآثاره ، وقد كان أخذ في عمل طبقات الشعراء على رتب الأسنان ، وكنت أصغر القوم سنّاً فصنعت :

رفقاً أبا إسحق بالعالم حصلت في أضيق من خاتم

(١) العملة ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) ابن رشيق ص ٤٠ .

(٣) العملة ج ١ ص ٩٨ .

(٤) قراضة الذهب ص ٣٧ .

لو كان فضل السبق مندوحة فضّل إبليس على آدم
فبلغه البيتان ، فأمسك عنه ، واعتذر منه ، ومات وقد سد عليه باب
الذكرة ولم يصنع شيئاً . (١)

وقد أفاد منه ابن رشيّق ونقل عنه في أكثر من موضع بكتابه العمدة ،
كما في وحدة القصيدة ج ٢ ص ١٦ بزهر الآداب فإنه هو الذي نقله ابن رشيّق
بكتابه العمدة ج ٢ ص ١١٢ إلى غير ذلك . وعنه يقول : « كان شبان القيروان
يجتمعون عنده ، ويأخذون عنه ، ورأس عندهم ، وشرف لديهم . وسارت
تأليفاته ، وانتهالت عليه الصلوات من الجهات » . (٢)

(هـ) الشيخ أبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الحشني الضرير :
ويقول فيه تلميذه ، كان مشهوراً بالنحو واللغة جدياً ، مفتقراً إليه فيهما ،
بصبراً بغيرهما ، ولم يرقط ضرير أطيب منه نفساً ، ولا أكثر منه حياء ، مع
دين وعفة . (٣)

ويمكن أن نقول عنه إنه أخذ منه اللغة والنحو كما أخذ عنه النقد والبصر به ،
فقد نقل رأيه في القطع والطوال من القصائد . (٤)

(و) أبو عبد الله محمد بن إبراهيم السمين ، ويكثر ابن رشيّق من
الرواية عنه وقد سأله عن المقاطع .

أولئك شيوخ ابن رشيّق ، الذين وقفت على طرف من أخبارهم ، وتأكد
لدى أخذه عنهم ، والذي لا شك فيه أن ثمة غيرهم ، ولكن لا سبيل إلى الحديث
فيهم لقلة معلوماتي عنهم .

(١) معجم الأدباء ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٣ .

(٣) بساط العقيق ص ٥٧ .

(٤) العمدة ج ١ ص ١٦١ .

٣ - قضية منافسة :

وقبل أن نتحدث عن المصدر الثاني من مصادر ثقافة ابن رشيق نذكر أنه نفي عن نفسه دعوى أن يكون أخذ عن بعض معاصريه . وقد أشرنا في الفصل السابق إلى أن هذا البعض الذي عناه في تعريضاته إنما هو ابن شرف القيرواني للذي كان بينهما من المنافسة . لكن نفي ابن رشيق - بنفسه عن نفسه - لا ينهض حجة على صدقه ، فلنبحث عن مرجحات تؤيد هذه الدعوى .

إن التشابه قائم بين بعض ما جاء لابن رشيق من قضايا النقد في كتبه ، وبين ما جاء منها لابن شرف في رسالته . « أعلام الكلام » وليس بين أيدينا ما يشير إلى تاريخ تأليف رسالة أعلام الكلام هذه ، حتى نعرف من السابق ومن المسبوق فنعرف من الآخذ ومن المأخوذ منه . غير أن ذلك لا يحول بيننا وبين الاجتهاد .

وبقراءة مقدمة رسالة أعلام الكلام نرى صاحبها يقول : « وعزوتها إلى أبي الريان الصلت بن السكن بن سلامان ، وكان شيخاً هماً في اللسان ، وبدراً تماً في البيان ، قد بقى أحقاباً ، ولقى أعقاباً ، ثم ألقته إلينا من باديته الأزمات ، وأوردته علينا العزمات ، فامتحننا من علمه بجرأ جاريأ ، وقد حنا من فهمه زندأ واريأ ، وأدرنا من بره ظرفأ ، واجتنيينا من ثمره طرفأ ، ونحن إذ ذاك والشباب مقتبل ، وغفلة الزمان تهتل »^(١) وصريح ذلك القول أنه ألف الرسالة في صدر الشباب ، فإذا عرفنا أن مولده كان سنة ٣٩٠ هـ. قدرنا أنه كتبها بين سنة ٤١٠ و ٤٢٠ هـ. لأن هذه الفترة هي التي يمكن أن تعد سن الشباب . وإذ أن العملة ألف ما بين سنة ٤١٢ هـ ، ٤٢٥ هـ . فإن الرجلين يكونان قد تعاصرا في تأليف الكتابين .

وعلى هذا يكون ما ادعى على ابن رشيق من أنه أخذ عن ابن شرف لآمانع

(١) أعلام الكلام ص ١٣ .

منه ، وأن نفي هو عن نفسه ذلك الأخذ ؛ لا سيما إذا أضفنا أن بين الرسالة لابن شرف وبين العمدة لابن رشيق مشابه كثيرة ، فمن ذلك أن ترى رأيهما في ابن الرومي قريباً من قريب .

يقول فيه ابن شرف : « وأما ابن الرومي فشجرة الاختراع ، وثمرتها الابتداع ، وله في الهجاء ما ليس له في الإطراء ، فتح فيه أبواباً ، ووصل منه أسباباً ، وخلع منه أثواباً ، وطوق به رقاباً » . (١)

ويقول عنه ابن رشيق : « وكان ابن الرومي ضنيناً بالمعاني ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم ألا مطمع فيه لأحد » . (٢)

ويستفتح ابن شرف رسالته تلك بقوله « الضليل مؤسس الأساس ، وبنائه عليه الناس ، كانوا يقولون أسيلة الخلد ، حتى قال امرؤ القيس : أسيلة مجرى الدمع ؛ وكانوا يقولون تامة القامة ، وطويلة القامة ، وأشباه هذا ، وجيداء ، وتامة العنق ، حتى قال امرؤ القيس ، بعيدة مهوى القرط ؛ وكانوا يقولون في الفرس السابق : يلحق الغزال ، ويسبق الظلام أو الظليم ، حتى قال : بمنجرد قيد الأوابد ، ومثل هذا له كثير » . (٣)

ويقول ابن رشيق في مستهل رسالته قراضة الذهب : « وأنا أقتصر من جميع الشعراء فيما أورده على امرئ القيس ، لأنه المقدم لا محالة ، وإن وقع في ذلك بعض الخلاف ، فالمميز الحاذق بطرق البلاغة يجد لكلامه من الفضيلة في نفسه ما لا يجد لغيره من كلام الشعراء ؛ والبحث والتفتيش يزيدانه جلالة ، ويوجبان له على من سواه مزية » ، ثم يذكر أن له قيد الأوابد ، وأن له في الليل قوله :

(١) أعلام الكلام ص ٢٤ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٢٣٧ .

(٣) أعلام الكلام ص ١٦ .

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكل
وقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل^(١)
ويتحدث ابن شرف عن القدماء والمحدثين في رسالته^(٢) ، فرى ابن رشيق
كذلك يتحدث عنهم في كتاب العمدة^(٣) .

غير أن احتمال أخذ أيهما عن صاحبه ، يعكسه علينا أن ابن شرف يعود
في رسالته « أعلام الكلام » فيقول : ولعمرك ما أشكر من نفسي ، ولا أثنى على
شيء من حسي ، إلا ظفري بالأقل مما حاولته ، على ما أضرمته نيران الغربة
من قلبي ، وثلمته صمغات الفتنة من لبي ، وقطعت أهوال البر والبحر من
خواطري ، وأضعفت الوحشة والوحدة من غرائزي وبصائري ؛ وهذا الحديث
يوحى بأن الرسالة كتبت بعد أهوال بر وبحر ، وبعد غربة وفتنة ، وبعد وحشة
ووحدة ، ونحن نعلم ألافتته لإفتنة المعز بن باديس التي كانت سنة ٤٤٥ هـ . والتي
دعت إلى فرار المعز من القيروان إلى المهديّة سنة ٤٤٩ هـ . والتي كانت سبباً
في خروج ابن رشيق وابن شرف إلى صقلية ، ثم خروج ابن شرف وحده إلى
الأندلس . فإذا كان ذلك ، فإننا نؤيد ابن رشيق فيما ادعاه لنفسه من أنه لم
يأخذ عن غيره ، ومن أنه بالتبع لم يأخذ عن ابن شرف ، لأن رسالة ابن شرف
على ذلك تكون قد كتبت بعد هذه الأحداث ، والعمدة على ما حققت ألف
قبل ذلك بكثير^(٤) ويكون ابن شرف هو الذي أخذ عن صاحبنا ، فلا يعدّ ،
بعد ، من مصادر ابن رشيق لا في العمدة ولا في القراضة .

(١) قراضة الذهب ص ١٥ .

(٢) أعلام الكلام ص ٢٨ .

(٣) العمدة ج ١ ص ٧٣ .

(٤) راجع ذلك في ابن رشيق ونقد الشعر المؤلف - ص ٧٥-٨٥ .

٤ - أوهام المترجمين :

ومما تجدر الإشارة إليه أن صاحب « الذخيرة » حين يتحدث عن ابن شرف يذكر فصلاً على أنه من كلامه ويذكر أنه موجود في صدر رسالته : « أعلام الكلام » فيقول : « ومن كلامه في صدر كتابه الموسوم بأعلام الكلام ، فصل يقول فيه قد أطلت . . . » ولكن الرسالة بأيدينا وليس فيها شيء من هذا الذي يذكره ابن بسام ؛ فهل كانت الرسالة أكبر مما هي عليه اليوم ، وضاع منها . . أم أن ابن بسام نسب إليها ما ليس فيها ؟

ثم هو يقول أيضاً : « إن ما في الرسالة مقامات عارض بها البديع » وليس ما في الرسالة بمقامات تشبه أن تكون معارضة لمقامات البديع ، اللهم إلا أن يعد الرسالة كلها مقامة من هذه المقامات التي ذكر ابن بسام أن ابن شرف صنعها وجمعها في كتاب « أبكار الأفكار » إذ يقول عن هذا الكتاب : إنه « يشتمل على مائة نوع من مواعظ وأمثال وحكايات قصار وطوال » . (١)

وأشير أيضاً إلى أن في صلب رسالة « أعلام الكلام » كلاماً يبدو أنه ليس منها ، كأن تجد فيها بعد حديث أبي الريان عن أبي تمام العبارة الآتية : « قال ابن بسام أما صفته لأبي تمام فنصفه لم يثن عطفها حمية ، ولا تعلقت بذيلها عصبية ، حتى لو سمعها لا تخذها قبلة ، واعتمدها ملة ، فما لام من أدب وإن أوجع ، ولا سب من صدق وإن أقذع : » (٢) فهل هذه زيادة من الناسخ إذ كيف يكون منها ما يقوله ابن بسام وهو متأخر في الوجود عن صاحب الرسالة : ابن شرف !

وبعد فبالنظر إلى ثقافة شيوخ ابن رشيقي ، أولئك الذين تحدثنا عنهم ، نرى أنهم جميعاً أصحاب ثقافة أدبية تتصل أكثر ما تتصل بالنظر في الشعر

(١) الذخيرة ، المجلد الأول من القسم الرابع ص ١٤٠ .

(٢) أعلام الكلام ص ٢٣ .

والنثر وما يمت إليهما بسبب ، فلا عجب أن تأثر بهم ابن رشيق فكان إنتاجه كله في وادى الأدب والنقد . وأعني بهذه الإشارة أن ليس فيهم المؤرخ ولا المحدث ، فليس إذن في إنتاجه ما يتصل بالتاريخ والحديث كما ذهب إليه بعض الذين أرخوه فنسبوا له كتباً في هذين الفنين من فنون المعرفة على ما سنفصله بعد .

٥ - أثر المشرق في ثقافته :

أما عن المصدر الأثر في ثقافة ابن رشيق فإنه أكثر ما كتب في موضوع النقد قبله لا سيما الذى يصدر عن المشرق .

وليس همى هنا أن أحصى كل ما وقعت عليه يده ، إذ ليس إلى إحصاء ذلك من سبيل . وإنما أذكر طائفة مما قرأ ، ومن قرأ لهم ، ونقل عنهم ، وصرح به في كتابيه القائمين بأيدينا ، وأعني بهما العمدة ، وقراصة الذهب .

(١) فهو قد قرأ للقاضى الجرجاني كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» وأكثر من الاستشهاد بآرائه ، ونقل كثيراً منها برمته ، راضياً عنها في أحيان كثيرة يستطيع أن يقف عليها من يتصفح العمدة ، رافضاً لها في بعض الأحيان ، أو مفسراً إياها كالذى نراه حين يقول عن البحترى :

« غير أن القاضى الجرجاني فضله ، بجودة الاستهلال ، وهو الابتداء ، على أبى تمام وأبى الطيب ، وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة ، واست أرى لذلك وجهاً إلا كثرة شعره كما قدمت ؛ فإنه لو حاسبهما ابتداءً جيئاً بابتداء جيئ ، لأربى عليهما وقصراً عن عذره » . (١)

ولا يفوته أن يشهد للقاضى بالخير حين يقول « وقال الجرجاني ، وهو

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٠٤ . والعذر يريد بها ابتكاراته ومفرداتها عذرة ، وهى فى الأصل علامة تعقد فى ناصية الفرس السابق دفناً لعين .

أصبح مذهباً ، وأكثر تحقيقاً من كثير ممن نظر في هذا الشأن . يريد السرقات .

(ب) وقرأ لابن وكيع كتابه « المنصف » ، وأبدى فيه رأياً لما قال : « وأما ابن وكيع فقله قلم في صدر كتابه على أبي الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر ، إلا الصدر الأول إن سلم لهم ذلك ، وسماه كتاب المنصف ، مثل ما سمى اللديغ سليمان ، وما أبعد الإنصاف منه »^(١) . وهذا الأسلوب يكشف عن قوة شخصية ابن رشيقي ، وأنه يعتد بنفسه وبرأيه ، فيقبل ويرفض غير مقتف أثر ، أو ماش في سبيل غيره إلا أن يكون عن اقتناع .

(ح) وقرأ للآمدي كتابه « الموازنة بين الطائيين » قراءة الدارس الذي يتمثل ما يقرأ ، فتراه يقول : « وكان أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي يفضل ابتداءات البحري جداً ، وهو الذي وضع كتاب « الموازنة وال ترجيح بين الطائيين ، ونوه بالبحري أعظم تنويه »^(٢) .

(ء) كما قرأ للحاتمي رسالته وأكثر من النقل عنها ، لا سيما في باب السرقات .

(هـ) وكذلك قرأ للرماني أبي الحسن ، ونقل عنه في كثير من المواطن .^(٣) وأكثر ما يكون ذلك حينما يتعرض للحديث عن البلاغة وفصولها .

(و) وأكثر من الرواية عن الجاحظ — وله في نفسه المنزلة الكبرى ، ولكتبه الأثر الواضح في تأليفه وإنتاجه ، حتى لرجحت أن يكون ابن رشيقي ، قد نهج منهجه ، وجرى في أثره ، ولكنه كان فاضلاً حين اعترف ، ويعترف له كثيراً بفضل سبق ، مع التقدم في الزمن فيقول : « وقد استفرغ الجاحظ ، وهو علامة وقته ، الجهد : فوضع كتاباً لا يبلغ جودة وفضلاً ، ثم ما ادعى

(١) العملة ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٢) العملة ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) العملة ج ٢ ص ٢٠٥ .

إحاطة بهذا الفن لكثرة^(١) والكتاب الذى يشير إليه إنما هو البيان والتبيين ،
وأما الفن فالبيان .

وينقل عنه فى باب النظم أن « أجود الشعر ما رأيت متلاحم الأجزاء ،
سهل الخارج »^(٢) وكأنما ارتضى هذا رأى فقال : « وإذا كان الكلام على هذا
الأسلوب الذى ذكره الجاحظ لذمائه ، ونحف محتمله » .^(٣)

(ز) ورأى ابن رشيقي كتاب الجمهرة ، وقرأه ، ونقل منه حين تحدث
عن المعلقات فقال : « وقال محمد بن أبي الخطاب فى كتابه الموسوم بجمهرة
أشعار العرب : إن أبا عبيدة قال : أصحاب السبع التى تسمى السمط ،
امرؤ القيس وزهير . . . »^(٤)

(ح) أما عن ابن سلام الحمجى فما أوضح أثره فيما كتب ابن رشيقي ،
يصرح بذلك فى أكثر ما يأخذ عنه كأن يقول « إن للشعر صناعة وثقافة يعرفها
أهل العلم »^(٥) .

(ط) وكذلك أخذ عن ابن قتيبة ، وكان هذا فيما كتب مصدراً لصاحبنا
فى كثير من معارفه التى كتب عنها ، فقد قرأ له كتاب « الشعر والشعراء »
ونقل منه وسرى أثر ذلك واضحاً كلما قرأنا موضوعات النقد عن ابن رشيقي^(٦)
وقرأ له كتاب « المعارف » وصرح بذلك حينما تحدث عن غزوات الرسول فقال :
« وكل هذا مختصر من كتاب ابن قتيبة ، وإياه قلدت فيما رأيت من هذه
الطريقة » .^(٧)

(١) العملة ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٢٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٧٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٦) المصدر السابق ص ١٩٠ .

(٧) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(ك) وكالشعر والشعراء لابن قتيبة في حياة ابن رشيقي العلمية ، كتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ، فقد نقل عنه فصولاً كاملة أو تكاد تكون كاملة ، ويعقب عليها أحياناً بالشرح والتوضيح ، كما يبدي فيها رأيه ، برضا أو برفض كأن يقول بعد أن ينقل قطعة منه ! « إلا أن قدامة أبي منه وأنكره جملة ، وليس ذلك صواباً » . (١)

وكما أوضحت في كتابي « ابن رشيقي ونقد الشعر » يمكن القول إنه اتخذ من قدامة إماماً في كثير مما عرض له مما يتعلق بالشعر في كتابه العمدة « لا سيما في باب الأغراض .

كما لم يفته أن يقرأ كتاب « البديع » لابن المعتز ، وتأثره به جد واضح فيما كتب من أبواب البلاغة .

ويلفت نظر الباحث أنه لم يرو عن الأندلسيين ، اللهم إلا أن يكون عن صاحب العقد الفريد ، على قلة ونُدرة ، وتعليل ذلك فيما أرى ، أن أهل المغرب كانوا يتخذون من أهل المشرق وعلمائه لأنفسهم إماماً .

وثمة كتاب إعجاز القرآن للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ . فإنه يتفق مع ابن رشيقي حين اشترط النية والقصد في الكلام ليعد من قبيل الشعر ، ولكن ابن رشيقي لا يذكره ولا يشير إليه ، فهل قرأه وأخذ منه ورفض أن يصرح باسمه ؟ وذلك ما لم نألف من الرجل في أمانته ، ولا يمكن أن يكون من توارد الخواطر اتفاقهما هذا .

وعندي أن كليهما أخذ عن الجاحظ فهو قبلهما ، وهو الذي عرض لهذا الشرط في الكلام ليكون شعراً في الاصطلاح .

وكما لم يذكر ابن رشيقي كتاب الباقلاني ، فإنه لم يذكر كتاب « الصناعتين » لأبي هلال العسكري ، ولعله لم يصل إلى يده .

٦ - قدرته على تمثيل المعرفة :

وإذا اعتبرنا استعداد ابن رشيقي ، الفطري ، مصدراً من مصادر ثقافته على ما في ذلك من تجاوز كبير ، فإننا نذكر أن قد كان لهذا الاستعداد أثر واضح في إنتاجه ، فلم يكن متلقياً عن شيوخه وحسب . ولم يكن مجرد قارئ لما كتب غيره قبله . ولم يكن مجرد وساطة في نقل آثار المتقدمين ، وإنما كان فوق ذلك بكثير ، كان بوتقة تصهر ما يأتي فيها ، ثم تخرجه للناس شيئاً جديداً كل الجدة ، كان يسلط على ذلك كله من عقله وذهنه فيحييه خلقاً آخر ، برأيه وثقوبه ، يرضى عما يتلقى أحياناً ، ويرفض أحياناً ، ويناقش ويعارض أحياناً .
ثالثة ، فيذهب غير المذهب ، ويرى غير الرأي ، مما يؤكد أن كانت له شخصيته الواضحة فيما خلف من آثاره . وليس كما زعم الدكتور مندور حين قال : « وتلا عبد القاهر مؤلفون ، بل وعاصره مؤلفون كأبي علي الحسن ابن رشيقي القيرواني المتوفى سنة ٤٦٣هـ أو سنة ٤٥٦هـ . صاحب العمدة الذي جمع في كتابه الكثير من أخبار الأدب العربي والنقد العربي وعلوم اللغة ، دون أن يتضح للمؤلف منهج خاص وشخصية متميزة » .^(١)

٧ - شاعريته :

يعتبر ابن رشيقي بين شعراء عصره من المبرزين . وقد تقدم أنه هو وابن شرف ، كانا شاعري قصر المعز لكن ابن بسام يقدم صاحبنا على ابن شرف « ويرفعه درجات » وابن رشيقي نفسه يربأ عن أن يكون صغر سنه مما يؤخره عن شعراء القيروان في نظر الحصري حين هم هذا بوضع كتاب في طبقات الشعراء ، يكون أساسه السن ، وقد تقدم خبر ذلك كله . وسيرد عليك مما نختار له ما يؤكد صدق دعوانا في شاعرية الرجل .

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٢٨٨ .

على أن ابن رشيق لا يُزهي بشعره فوق درجته ، وإنما يضع نفسه موضعها ، فلا يتناول على أمثال المتنبي أو البحتري أو أبي تمام ؛ قال ابن بسام : « ... وحدثت أن أبا علي بن رشيق ناجى نفسه بمعارضة أبي الطيب في بعض أشعاره وراطن شيطانه بالدخول في مضماره ، فأطال الفكرة ، وأعمل النظرة . فأداه جهده وذهب به نقده إلى معارضة قوله :

أهن ازديارك في الدجى الرقباء (١)

فبث عيونه ، واستمد ملائكته وشياطينه . . . ثم صنع قصيدة فيما بلغنى ، رأى أنها مادة طبعه ، ومنتهى طاقة وسعه ، ثم حكّم نقده ، ورضى بما عنده ، فرأى أن قصرت يداه ، وقصر مداه ، وعلم أن الإحسان كثر لا يوجد بالطلب ، وميدان لا يستولى عليه التعصب ، وصان نفسه عن أن يتحدث عنه ، بأن تكون الهرة أحزم منه ، (٢) ورحم الله امرءاً عرف قدر نفسه .

٨- آثار ابن رشيق :

يعثر المتصفح لكتب الطبقات والتراجم ، على أسماء كثيرة لمؤلفات نسبت كلها إلى ابن رشيق . وستحدث هنا عما وقفنا عليه من ذلك وناقشه ، ثم نحاول ترتيب ما يتأكد لنا أنه له ، ترتيباً تاريخياً ما أعانت على هذا وسائلنا ، ونخص كتبه الباقية إلى يومنا كلاً بكلمة ، ولعل في ذلك بعض القيام بحق الرجل . فما وردت أسماءه على أنه كتب له ، وبقي منها وضاع ما يأتي :

- ١ - العمدة في صناعة الشعر ونقده .
- ٢ - قراضة الذهب في نقد أشعار العرب .
- ٣ - أنموذج الزمان في شعراء القيروان .
- ٤ - الشذوذ في اللغة . (يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها) .

(١) هذا شطر مطلع قصيدة المتنبي ، وشطره الثاني : إذ حيث أنت من الضياء ضياء .

(٢) الذخيرة - القسم الرابع - المجلد الأول ص ١٥ .

٥ - الرسائل الفائقة والنظم الجيد .

وهذه ذكرها له ابن خلكان حين ترجمه^(١) ، كما أثبت له في ترجمة ابن

شرف :

٦ - ساحور الكلب .

٧ - نجح الطلب .

٨ - رفع الإشكال ودفع المحال .

٩ - قطع الأنفاس .

١٠ - نسخ الملح ومسح الملح .

وقد ذكر هذا الكتاب ياقوت وروى له منه قوله :

المرء في فسحة كما علموا حتى يرى شعره وتأليفه
فواحد منهما صفحت له عنه وجازت زخاريفه
وآخر نحن منه في غرر إن لم يوافق رضاك تثقيفه
وقد بعثنا كبسين ملؤهما نقد امرئ حاذق وتزييفه
فانظر - وما زلت أهل معرفة يامن لنا علمه ومعرفة^(٢)

ويشبه أن يكون ابن رشيقي اتجه بشعره هذا إلى سيده أبي علي ابن أبي الرجال . فمثل هذا الأسلوب ، والاتجاه به إليه كثير في آثار الرجل ، وإذا صح هذا يكون ذلك الكتاب أو تلك الرسالة قد كتبت قبل سنة ٤٢٥ هـ . التي فيها توفي أبو علي . وربما رجح ذلك الذي تقدم ما جاء في نفس الكتاب من قوله :

ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت حبال ، ولاولّى ثنائى مودعاً
إلى أن يقول :

فباينت لا أن العداوة باينت وقاطعت لا أن الوفاء تقطعا

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٢ - ١٧٠ .

(٢) معجم الأدباء ج ٨ ص ١١٧ .

إذ تميل النفس إلى اعتبار ذلك الشعر مما قاله الرجل يعتذر به من غيبته عن ديوان سيده ، تلك الغيبة التي أشرنا إليها حين تحدثنا عن حياته .

١١ - سر السرور ، وذكره له ياقوت في معجمه ، ونقل منه قوله :

معتقة يعلسو الحباب متونها فتحسبه فيها نثير جمان

رأت من بلخ راحة لمديرها فطافت له من عسجد ببنان

وزاد صاحب كشف الظنون على هذه الكتب :

١٢ - شرح موطأ مالك .

١٣ - تاريخ قيروان .

وأضاف له صاحب بساط العقيق : (١)

١٤ - الروضة الموشية في شعراء المهديّة .

١٥ - ميزان العمل في تاريخ الدول .

وذكر له عبد العزيز الميمنى .

١٦ - جزءا من ديوانه .

وقال عنه : موجود بمكتبة أسكوريال ضمن مجموعة : (٢)

وأثبت له الأستاذ نجاتي : (٣)

١٧ - طراز الأدب .

١٨ - الممادح والمذام .

١٩ - متفق التصحيف .

٢٠ - تحرير الموازنة .

٢١ - الاتصال .

٢٢ - المن والفدا .

(١) بساط العقيق ص ٨٩ .

(٢) ابن رشيق ص ٨٣ .

(٣) حاشية وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٦٧ .

٢٣ - غرائب الأوصاف ، ولطائف التشبيهات لما انفرد به المحدثون .

٢٤ - كتاب الرياحين .

٢٥ - صدق المدائح .

٢٦ - الأسماء المعربة .

٢٧ - إثبات المنازعة .

٢٨ - معالم التاريخ .

٢٩ - التوسع في مضائق القول .

٣٠ - بلغة الأشفاق في ذكر أيام العشاق .

٣١ - الحيلة والاحتراس .

٣٢ - المساوي في كشف السرقات الشعرية .

وعلق الأستاذ نجاتي على ذلك الثبت بقوله : ويخيل لي أن بعض هذه الأسماء

تراجم لأبواب من مشهور كتبه .

ولولا أن الأستاذ جعل الشك في بعض هذه الأسماء لخالفته لأن طائفة منها

ثبت وجودها على أنها كتب مستقلة ، نقل ذلك أصحاب التراجم ، كسر السور ،

وفسح الملح ، والأنموذج ، وبعضها تحدث عنه ابن رشيق نفسه فقد ذكر في

كتابه قراضة الذهب أن له رسالة « المساوي » وهكذا .

وأياً ما كان الرأي في هذه الأسماء ، فأكثرها مفقود ، وليس بأيدينا منها

اليوم إلا العملة ، وقراضة الذهب ، والجزء من ديوانه بمكتبة الأسكوريال

وسنخص العملة والقراضة بكلمة فيما بعد .

٩ - شبه وردها :

بقي أن الدكتور حسين مؤنس يذكر في كتابه « فتح العرب للمغرب » أن

ابن رشيق من ثقات أهل البلاد .. ومن تناولوا الكتابة في تاريخ المغرب^(١)

ولست أدري على أي سند اعتمد الدكتور في إصدار هذا الحكم ، اللهم إلا أن

(١) فتح العرب للمغرب ص ٣٠٩ .

يكون اعتمد على سعادة حسن حسنى باشا وزير تونس ، حيث قال « أما الفن الذى أفاض فيه ابن رشيق عرفانه ، وأطلق للقلم عنانه فهو التاريخ وفروعه ، فإنه وضع فيه "ميزان العدل فى تاريخ الدول" أتى فى ضمنه على الدول العربية قبل الإسلام وبعده إلى زمانه : ثم قال : « وهو مفقود الآن » ؟ (١)

وهذا كله يتعرض لمثل ما يأتى من الاعتراضات :

١ - إن حسن حسنى باشا لم يذكر لنا المرجع الذى ذكر هذا الكتاب حتى نناقشه .

٢ - إن الكتب التى ترجمت لابن رشيق كالمعجم ، والوفيات ، والبغية ، وشذرات الذهب ، إلى غير ذلك مما وقفنا عليه لم تذكر له ذلك الكتاب ، اللهم إلا كشف الظنون فقد ذكره ، ولكنه لم يذكر أنه أتى فيه على « الدول العربية قبل الإسلام وبعده إلى زمانه » وإنما قال : ميزان العمل فى التاريخ لحسن بن رشيق المتوفى سنة ٨٤٥ هـ . اقتصر فيه على عدد الأيام من دول الملوك . (٢)

٣ - إن ابن رشيق نفسه يذكر فى قراضة الذهب أن غارة للجراد وقعت بالمغرب وأن تحطاً نزل بالقيروان . ثم يقول « ولا أشك أن أصحاب التاريخ أثبتوا القصة والسنة التى كانت فيها » (٣) ومفهوم هذه العبارة أنه هو ليس من أصحاب التاريخ ولا من كتابه .

٤ - إن المترجمين القدماء اعتادوا أن يصدرُوا ترجماتهم بفدلكات ثم عما اشتهر به المترجم ، كأن يقولوا : العالم المؤرخ ، أو الشاعر الأديب ، أو الكاتب المترسل ، أو الرحالة الأديب الكاتب ذو الوزارتين . . . إلى غير ذلك مما يعطى فكرة عن أهم ما اشتهر به الرجل . ولا نجد فى جانب ابن رشيق شيئاً

(١) بساط الحقيق ص ٨٩ .

(٢) كشف الظنون ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٣) قراضة الذهب ص ٥٠ .

نم عن أنه كان مؤرخاً . هذا فضلاً عن أن الحكم « بالثقة في التاريخ » لا يكون إلا بعد قراءة المادة التي كتبها المؤرخ ، وبعد عرضها على مقاييس الصحة والتوثيق فأين ما استنتج منه الدكتور بعض ذلك ؟ وحسن حسنى باشا يقرر أن الكتاب الذى نسبه إليه في هذا الفن مفقود !

٥ — يضاف إلى ذلك كله أن ابن رشيق قال في باب « ذكر الوقائع والأيام » بكتابه العمدة : « قد أثبت في هذا الباب ما تأتى إلى من أيام العرب ووقائعهم ، ولم أشرط استقصاءها ، إذ كان في أقل مما جثت به مقنع ، ولأن أبا عبيدة ونظراءه قد فرغوا مما ذكرت » . (١)

ويقول في باب « معرفة ملوك العرب » « وأنا أذكر في هذا الباب من ملوك النواحي من أخذه حفظى وبلغته روايتى ، على شريطة الاقتصاد والتلخيص » . (٢) فترى معى أن الرجل لم يشر إلى أن له كتاب تاريخ ، ولا إلى أنه سيكتب في التاريخ كتاباً « يقيس فيه عرفانه ، ويطلق فيه لقلم عنانه » وإنما الذى له « معلومات أخذها حفظه وبلغتها روايته » ، « على شريطة الاقتصاد والتلخيص » . وعلى هذا فالرواية قائمة على أوهام المتقدمين الذين ظنوا بعض فصوله في كتبه ، كتباً مستقلة ، وتبعهم في ذلك علماء من المحدثين .

وكإثباتهم له كتاب تاريخ ، إثباتهم له كتاب « شرح الموطأ » وليس في حياة ابن رشيق ما يشتم منه أنه كتب في الحديث ، لا شرحاً ولا متناً . وقد أتيح لى في فبراير سنة ١٩٥٥ ، في أثناء انعقاد دورة المجمع اللغوى بالقاهرة أن أقابل سعادة حسن حسنى باشا ، فعرضت عليه رأيي فيما جاء بكتابه « بساط العقيق » بهذا الصدد ، فصوب ما ذهبت إليه ، وذكر لى أنه ينوى تصحيح ذلك في طبعات الكتاب الجديدة ، وهذا خلق العلماء ، إذ لا يعينهم إلا الحق حينما بان .

(١) العمدة ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢١٤ .

١٠ - ترتيب ما أمكن ترتيبه من آثار ابن رشيقي :

لم تصل يدي على الرغم من كثرة التنقيب ، في المظان التي توقعت أن يكون فيها ذكر لكتب الرجل إلى غير كتابي العمدة ، وقراضة الذهب ، وبعض ما جاء له من شعر متناثر في كتب الطبقات . وهذه كلمة عن كل من الكتابين .

١١ - كتاب العمدة :

ويبدو أنه أول ما كتب ابن رشيقي ، إذ يذكر فيه مقدمه على المعز بن باديس ، وإنشاده بين يديه ، وأنه ألفه للسيد الأجد . . . آبي المظالم . . رجل الخطب وفارس الكتب أبي الحسن علي بن أبي الرجال الكاتب ^(١) فإن وقع منه بموقع ، وحل من قبوله بموضع . . بلغ الإرادات ، ورجا الزيادات : وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب ^(٢) وهكذا يبدو أن أول الغيث كان كتاب العمدة ، ثم تلتها القطرات الكثيرة .

١٢ - رفع الكتب إلى الحكام :

وابن رشيقي في رفعه الكتاب إلى رئيس الديوان ، إنما يجري على سنة العصر ، من تقديم الكتب إلى رجال السياسة والحكم ، فالجاحظ في الشرق ، والقالبي في الغرب ، وغيرهم يرفعون كتبهم إلى الحكام ، حتى يضمّنوا لها الرواج ، ويضمّنوا لأنفسهم الرزق والعطاء ، والحظوة والقربى عند من في أيديهم أمور الملك وأسباب الحياة .

وإذ رفع الرجل الكتاب إلى أبي الحسن ، ودعا له في آخره حين قال : وهذه أبيات كنت صنعتها للسيد أبي الحسن أدام الله عزه ، ختمت بها الكتاب لما جاء موضعها :

(١) العمدة ج ١ ص ٣ .

(٢) العمدة ج ١ ص ٦ .

إن الذي صاغت يدي وفى وجرى لساني فيه أو قلمي
 مما عنيتُ لسببك خالصه واخترتَه من جواهر الكلم
 لم أهدُه إلا لتكسوه ذكراً تجددَه على القدم
 لسنا نزيدك فضل معرفة لكنهن مصايدُ الكرم
 فاقبل هدية من أشدت به ونسخت عنه آية العدم
 لا نحسب الدنيا أبا حسن تأتي بتلك فائق المم

إذ كان ذلك — وأبو الحسن مات سنة ٤٢٥ هـ . فيمكننا أن نقول بأن
 الكتاب ألف قبل هذه السنة (١) .

أما بداية التأليف فنحن نعلم أنه وفد على القيروان سنة ٤٠٦ هـ . وأنه دخل
 على المعز بأول مدحة سنة ٤١٠ هـ . ويغلب أن يكون دخوله على المعز من طريق
 أبي الحسن رئيس الديوان ، فيكون الكتاب أُلّف بعد هذا التاريخ .

وبوسعنا أن نحدد تحديداً أقرب فنقول : إن ابن رشيقي يذكر عند حديثه
 عن موت دعلج الخزاعي بزوية بني الخطاب إن « هنالك قبره ، وإلى جانبه
 قبر عبد الله بن شيخه أبي عبد الله محمد بن جعفر النحوي — رحمه الله — » (٢)
 فإذا جعلنا دعاءه بالرحمة إنما هو لشيخه — على أساس عود الضمير لأقرب
 المذكور — دون أن يكون لابن شيخه ، صح أن نقول إن الكتاب ألف بعد
 سنة ٤١٢ هـ . لأنها السنة التي مات فيها الشيخ أبو عبد الله محمد بن جعفر .

وقد ذهب الميمني إلى أن « العملة » ألف بعد سنة ٤٤٩ هـ . وهذا أغرب
 ما رأيت إذ فضلاً على ما أسبقت من أدلة ، يستبعد العقل أن يظل ابن رشيقي ستين
 سنة لا يؤلف فيها شيئاً ، حتى إذا اضطربت الأمور ، وقعت الفتن وأخذ

(١) ذكر لي حسن حسني باشا يوم لقيته سنة ١٩٥٥ أنه رأى على قبر أبي الرجال لوحة كتب
 عليها أنه توفي سنة ٤٢٦ هـ .

(٢) العملة ج ١ ص ٥٧ .

الرجل يحاول النجاة بنفسه من شرورها ، قال الميمنى — إنه ألف كتاب العمدة ، أكبر كتبه .

١٣ — عناية العلماء بالكتاب :

وقد أعجب العلماء بالكتاب منذ ظهر ، فانخصره أبو عمر عثمان بن علي بن عمر الصقلي ، قال ياقوت في ترجمته (وله كتاب مختصر العمدة لابن رشيق ، وقال عثمان في مختصره هذا : « وقد ذكرت السرقات فقال لي — يعني ابن رشيق — من قصيدة أولها — نقلتها من خطه ، وقد أعلم عليه (ع) وهي علامة لنفسه :

دمع رأى برق الحمى فتحذرا وجوى ذكرت له الحمى فتسعرا
لو لم يكن هجرٌ لما عذب الهوى أنا اشتهى من هاجرى أن يهجرا
بينى وبين الحب نسبة عنصر فتي وصلت وصلت ذاك العنصر^(١)

وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن عثمان بن علي هذا سمي كتابه «العمدة» وارتضى الميمنى ذلك ، وكلام ياقوت عندي أولى بالقبول لتفصيله القول على ما تقدم . وقد وقفت أخيراً على هذا المخطوط بمكتبه ببلدية الإسكندرية تحت رقم ١٢٩٠ ب .

وكذلك اختصره ونبه على أغلاطه الأعلام الشنتمرى المتوفى سنة ٥٤٩ هـ . وسماه « مختصر العمدة والتنبيه على أغلاطه »^(٢) .

كما اختصره موفق الدين البغدادى .

أما عناية المحدثين بالكتاب . فتتضح في أنك لا ترى مؤلفاً يؤلف كتاباً في البلاغة أو النقد أو الأدب وتاريخه إلا ويستشهد بما كتب ابن رشيق في العمدة وقل أن يخلو كتاب من نقل عنه أو أخذ منه أو استشهاد به .

(١) معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٣٧ والبيت الثانى شبيه بقول المجنون :

إذا كان قرب الدار يورث حسدة فلا خير للصب المقيم في القرب

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٤٣٥ .

١٤ - قراضة الذهب :

واسمه الكامل « قراضة الذهب في نقد أشعار العرب » وألفه بعد العمدة بلا شك لأنه يقول في العمدة « على أن المحدثين شاركوا القدماء في كل ما ذكرته أيضاً ، كما خالطوهم في صفات النجوم : وكثير مما لا يتسع له الباب ، ولكنني أفرد له كتاباً قائماً بنفسه أذكر فيه ما انفرد به المحدثون ، وما شاركهم فيه المتقدمون^(١) » . أقول وذلك الكتاب ، هو القراضة لأن هذا موضوعه .

ويقول « وأنا أقول إن أكثر الشعراء اختراعاً ابن الرومي ، وسيأتي برهان ذلك في الكتاب الذي شرطت تأليفه إن شاء الله »^(٢) ويحقق هذا الذي أشار إليه في القراضة^(٣) .

وفي القراضة يقول « وفي كتاب العمدة من ذلك جملة صالحة^(٤) » وهذا صريح كله في تقدم العمدة عليها .

ويقول « والخذ في الأخذ على ضروب أنا ذاكر منها ما أمكن وتيسر ؛ إذ ليست هذه الرسالة موضع استقصاء ، لا سيما وقد فرغت في كتاب العمدة مما يراد أو أكثر »^(٥)

وإذ رجحت قبلاً أن العمدة كتب قبل سنة ٤٢٥ هـ فإنني أقطع هنا بأن القراضة كتبت بعد سنة ٤٢٧ هـ . بسنين عدة - قال ابن رشيق ، وكنت أنا قد صنعت منذ سنين عدة - وقد خرجنا للاستسقاء . فرجعنا وقد انتشر الجراد حتى كاد يحول بيننا وبين الشمس ، وشق ذلك على الذي خرج للاستسقاء ، وكان شيخاً صالحاً مات سنة سبع وعشرين بعد القصة بمدة طويلة ، خرجنا

(١) العمدة ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) العمدة ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٣) القراضة ص ٣٧

(٤) القراضة ص ٢٠ .

(٥) القراضة ص ٢٩ .

بنية الغيث نستسقى وقد أوحشت وجوه البلاد — صنعت :
 بينما نرتجى سحابة مزن غشيتنا سحابة من جراد
 ليس من قلة ولا بخل رب إنما ذاك من ذنوب العباد^(١)

١٥ — الأنموذج :

وبعض كتب التراجم تسميه النموذج ، وبعض المترجمين يزعم أن لابن رشيق كتابين بالأسمين وهذا من أوهام المتقدمين .
 ومع أن الكتاب لا وجود له ، ولم يقع لأحد من المعاصرين ، فإن منه نقولاً كثيرة تدل على أنه كان موجوداً إلى بداية القرن السادس الهجري . فابن ظافر المتوفى سنة ٦٢٣ هـ . ينقل منه في مواضع كثيرة بكتابه بدائع البدائنه ،^(٢) وكذلك ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار .
 والكتاب ألف بعد العملة أيضاً لأن ابن رشيق يقول « والشعراء في قبولها مال الملوك أعذر من المتورعين ، وأصحاب الفتيا ، لما جرت به العاده قبل الإسلام . . . وهذا باب قد احتذاه الكتاب في زماننا إلا القليل ، وقوم من شعراء وقتنا أنا ذاكرهم في كتاب غير هذا إن شاء الله » .^(٣) فالأرجح أن يكون هذا الكتاب هو أنموذج الزمان في شعراء القيروان .

١٦ — رسالة كشف المساوىء :

ويبدو أن موضوعها نقد بعض معاصريه كما يدل عليه الاسم ، وبقيناً كتبت قبل قراضه الذهب ، لأن ابن رشيق يقول في القراضه : « وما لا يعد سرقة أن تتفق قصة تقتضى صفة بعينها ، كالذى وقع لنا في رثاء السيدة الجليلة ،

(١) قراضه الذهب ص ٥٠ .

(٢) معجم الأدباء ج ١ ص ٦٥ .

(٣) العملة ج ١ ص ٦٧ .

من ذكر خلق الشعور ، ولبس المسوح ، وفي رثاء ابن زمام الدولة من موافقة الكسوف ، وقد بينت ذلك في رسالة كشف المساوي^(١) .

وقد حاولت معرفة السنة التي ماتت فيها السيدة الجلييلة ، أو التي مات فيها ابن زمام الدولة ، أو التي وقع الكسوف فيها لأحدد سنة كتابة الرسالة ، ولكن لم تسعني المصادر .

١٧ - القطعة من ديوان ابن رشيق :

وهذه موجودة بمكتبة أسكوربال ، ذكر ذلك أصحاب دائرة المعارف^(٢) ، الإسلامية كما ذكره الميمني^(٣) ، ولما كانت بعض شعره فليس في الإمكان تحديد زمان إنشائها ، فالشعر يصدر عن الشعراء ، ويسير معهم في حياتهم من أولها إلى آخرها .

وهذا أوان أن تقدم بين يدي القارئ نماذج من إنتاج ابن رشيق شعراً ونثراً.

(١) قراضة الذهب ص ٤٩ .

(٢) مجلد (١) عدد ٣ ص ١٨٠ تحت مادة « ابن رشيق » .

(٣) ابن رشيق الميمني ص ٨٢ .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن رشيق

١ - ابن رشيق النائر

رسالة

كتب الشيخ أبو علي الحسن بن رشيق الأزدي إلى أبي الحسن علي بن القاسم اللواتي رحمهما الله وكانت له عنده آياد ونعم (١) :

« أمتنع الله إخوانك ببقائك ، وكفاهم الاساءة فيك ، وجعلني من بينهم الفداء لك . وأسأل الذي شرح للعلم صدرك ، وعمر بالذكر قلبك ، وبسط بأحجة لسانك ، وبالحير يدك ، وقرن بالسداد قولك ، وبالسداد (٢) عملك ، أن يجرى مناظرك في حسن الأدب على رسمك ، ويجعل الإنصاف كما تؤثر حكما بينك وبين خصمك ، وقد بلغني أعزك الله - أنك استحسنيت معنى البيتين من مرثية الأمير سيدنا أبي منصور ، وهما الأخيران من هذه الأربعة الأبيات :

ألم يرههم كيف استقلوا (٣) ضحى	إلى كنف من رحمة الله واسع
إمام خميس ماج في البر بحر	يسير كمن اللجة المتدافع (٤)
إذا ضربت فيه الطبول تتابعت	به عذب تحكى ارتعاد الأصابع (٥)

(١) النص من رسالة له في السرقات « اسمها قراضة الذهب في نقد أشعار العرب » وسبقت الإشارة إليها .

(٢) السداد : الرشاد والصواب .

(٣) استقلوا : نقلوا وحملوا .

(٤) الخميس الجيش ، وماج في البر بحر .. إلخ . كناية عن كثرة جنده والبيت بعده يكمل الصورة .

(٥) من تمام وصف الجيش بالكثرة وكذا البيت بعده .

تجاوبَ نوحٌ بات يندب شجوه وأيدى ثكالى فوجئت بالفواجع
 وأن بعض من لا خلاق له فى الأدب ، ولا معرفة له بحقائق الكلام ،
 عارضك فيهما بالطعن ، ونازعاك معنهما بالجهل وادعى عليهما ضرباً من
 السرقة ونوعاً من الأخذ - ولم تؤت - أيدك الله - من قصر لسان ، ولا ضعف
 حجة وبيان ، لكنما أُتييت من سوء فهم صاحبك وقلة إنصاف مشاغبك .

تحليل لظاهرة سلوكية

وكتب تحت عنوان باب العتاب فقال يبين حقيقة العتاب وما يجر إليه إذا لم يتلطف فيه :

العتاب وإن كان حياة المودة ، وشاهد الوفاء فإنه بابٌ من أبواب الخديعة
 يسرع إلى الهجاء ، وسببٌ وكيدٌ من أسباب القطيعة والحقاء ، فإذا قلّ كان
 داعية الألفة ، وقيد الصُّحبة ، وإذا كثر خشن جانبُهُ وثقل صاحبُهُ ،
 وللعتاب طرائقٌ كثيرةٌ للناس فيه ضروبٌ مختلفة . فمنه ما يمازجه الاستعطافُ
 والاستئلاف ، ومنه ما يدخله الاحتجاجُ والانتصاف وقد يعرض فيه المنّ
 والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف . وأحسن الناس طريقاً فى
 عتاب الأشراف ، شيخ الصناعة ، وسيد الجماعة أبو عبادة البحرى الذى
 يقول :

يَرِيئِي الشَّيْءَ تَأْتِي بِهِ	وَأَكْبِيرُ قَدْرَكَ أَنْ أُسْتَرِيبَا ^(١)
وَأَكْسِرُهُ أَنْ أَتِمَادَى عَلَى	سَبِيلِ اغْتِرَارٍ فَأَلْقَى شَعُوبَا ^(٢)
أَكْذَبُ ظَنِّي بِأَنْ قَدْ سَخَطْتَ	وَمَا كُنْتُ أَعْهَدُ ظَنِّي كُنُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاخِطًا لَمْ أَكُنْ	أَذْمُ الزَّمَانَ وَأَشْكُو الْخَطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ أَنْتَحَى	عَلَيْكَ بِهَا مَخْطِئًا أَوْ مَصِيبَا

(١) رابه الأمر إذا شك فيه .

(٢) الشعوب : المنية هو اسم غير متصرف .

أصبحُ ورُدَى في ساحتَيْكَ طروقا ومَرَعَايَ مَحَلًّا جَدِيدًا^(١)
أبيعُ الأُحِبَّةَ بَيْعَ السَّوَامِ وآسَى عَلَيْهِمُ حَبِيبًا حَبِيبًا
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ يُشَقِّقُ فِيهِ الْوَدَاعُ الْجَيُوبَا^(٢)
وَمَا كَانَ سَخَطُكَ إِلَّا الْفَرَاقَ أَفَاضَ الدَّمْعَ وَأَشْجَى الْقُلُوبَا^(٣)
وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ ذَنْبًا لِمَا تَخَالَجَتْنِي الشُّكُ فِي أَنْ أَتُوبَا
سَأَصْبِرُ حَتَّى أَلَاقِي رِضَا كَ إِمَّا بَعِيدًا وَإِمَّا قَرِيبَا
أَرَأَيْتَ رَأَيْتَ حَتَّى يَصْحَ وَانْظُرْ عَطْفَكَ حَتَّى يُوُوبَا

الفأل والطيرة

وكتب تحت عنوان باب من الزجر والعبادة فقال :

« وعنهما يكون الفأل والطيرة ، وبين الطيرة والفأل فرقان عند أهل النظر والمعرفة والحقائق ، وذلك أن الفأل تقوية للعزيمة ، وتحضيض^٤ على البغية ، وإطماع في النية ، والطيرة تكسر النية وتصد^٥ عن الوجهة ، وتشتي^٦ العزيمة . وفي ذلك ما يعطل الإحالة على المقادير ، وقد تفاءل^٧ النبي صلى الله عليه وسلم ، ونهى عن الطيرة في قوله « لا عدوى ولا هامة ولا طيرة ، ولا صفر ... » والطيرة من أحد شيئين مشتقة ، إما من الطيران كأن الذي يرى ما يكره^٨ أو يسمع يطير كما قال بعضهم :

عوى الذئب فاستأنست^٩ بالذئب إذ عوى

وصوت^{١٠} إنسان^{١١} فكدت أطيرو^(٤)

(١) الورد مكان ورود القوم للاستقاء ، والحل والجديب : الذي لا زرع فيه ولا ضرع

كناية عن الخراب .

(٢) جيب الثوب طوقه وفتحته التي يلبس منها وعليه قول الشاعر :

فتى على الجيب بانه معبد

(٣) أشجى للقلوب : أحزنها .

(٤) استأنست بالذئب : اطمأنت له .

ولما من الطير وهو الأصل والمختار من الوجهين . هكذا ذكر الزجاجي . .
وكانت العرب تزجر الطير والوحش ، فمن قال بالقول الأول احتج بأن الوحش
يطير بها . . ومن قال بالقول الثاني قال : إنما كان الأصل في الطير ثم صار
في الوحش ، وقد يجوز أن يغلب أحد الشئيين على الآخر فيذكر دونه ويردان
جميعاً ، أنشد الجاحظ :

ما يعيف اليوم في الطير الدوح من غراب البين أو تيس بُرح
قال ، فجعل التيس من الطير إذ قدم ذكر الطير ، وجعله منها في
معنى التطير . . . والسائح الذي يلقاك وميامنه عن ميامنك ، والبارح الذي
يلقاك وشمائله عن شمائلك ، والجاهبه والناسط اللذان يستقبلانك ، والقعيد الذي
يأتيك من ورائك . . .

٢ - ابن رشيق الناقد :

نقد وتحليل

تدور مباحث كتاب العمدة لابن رشيق حول النقد والبلاغة كما أسبقت وله في ذلك الباع الذي
لا يطاول - وهذه عينة من نقده وتحليله .

كتب تحت عنوان باب النظم ، يذكر قول امرئ القيس :

كأنى لم أركب جواداً للذة ولم أتبعن كاعباً ذات خلجال (١)
ولم أسيباً الزق الردي ولم أقل لخلي كرى كرة بعد إجفال (٢)

فقال :

وكان قد ورد على سيف الدولة رجلٌ بغدادى يعرف بالمنتخب لا يكاد
يسلم منه أحد من القدماء والمحدثين ، ولا يذكر شعر بحضرته إلا عابه ، وظهر

(١) تبطن الدابة شد بطنها وهو الخزام ، وتبطن الشيء دخل فيه والمعنى لاقى الكواعب والكاعب :

الفتاة تهد ثديها وبرز .

(٢) سبأ الخمر : شراها ليشربها ، والروى الذي يروى ، ومنه شراب روى : فعيل بمعنى فاعل

وأجفل الحصان إذا حزن من قوة أو شراس .

على صاحبه بالحجة الواضحة، فأُنشِدَ يومًا هذين البيتين فقال : قد خالف
فيهما وأنشد ، أما لو قال :

كأنى لم أركب جواداً ولم أقل لخليّ كرى كرى بعد إجمال
ولم أسبأ الزقّ الروى للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لكان قد جمع بين الشيء وشكله : فذكر الجود والكر في بيت ، وذكر
النساء والخمر في بيت . . . قال ابن رشيّق — فالتبس الأمر بين يدي سيف
الدولة وسلموا له ما قال . فقال رجل ممن حضر : ولا كرامة لهذا الرأى : الله
أصدق منك حيث يقول : « إن لك ألاّ تجوعَ فيها ولا تعرّى ، وأنك لا
تظمأُ فيها ولا تضحى » . فأنى بالجوع مع العرى . ولم يأت به مع الظمأ ،
فسرّ سيف الدولة وأجازه بصلّة حسنة . قال صاحب الكتاب — يعنى ابن
رشيّق — قول امرئ القيس أصوب ومعناه أعز وأغرب ، لأن اللذة التى ذكرها ،
إنما هى الصيد ، هكذا قال العلماء ، ثم حكى عن شبابه وغشيانه النساء فجمع
في البيت الأول معنيين ، ولو نظمه على ما قال المعترض لنقص فائدة عظيمة ،
وفضيلة شريفة تدلّ على السلطان ، وكذلك البيت الثانى لو نظمه على ما قال ،
لكان ذكر اللذة حشواً لا فائدة فيه لأن الزق لا يسبأ إلا للذة ، فإن جعل
الفتوة كما جعلناه فيما تقدم الصيد ، قلنا فى ذكر الزقّ الروى كفاية ، ولكن
امراً القيس وصف نفسه بالفتوة والشجاعة بعد أن وصفها بالتملك والرفاهة .

وأما احتجاج الآخر بقول الله عز وجل فليس من هذا فى شيء لأنه أجرى
الخطاب على مستعمل العادة ؛ وفيه مع ذلك تناسب لأن العادة أن يقال :
جائع عريان ، ولم يستعمل فى هذا الموضع ظمآن ولا عطشان ، وقوله تعالى
تظمأ وتضحى متناسب لأن الضاحى هو الذى لا يستره شيء عن الشمس ،
والظمأ من شأن من كانت هذه حاله . . . وقال الجاحظ : فى القرآن معان
لا تكاد تفرق من مثل الصلاة والزكاة ، والخوف والجوع ، والجنة والنار ،
والرغبة والرغبة والمهاجرين والأنصار ، والحن والإنس ، والسمع والبصر . . .

ومن الشعراء من يضع كل لفظة موضعها ، لا يعدوه ، فيكون كلامه ظاهراً غير مُشكّل ، وسهلاً غير متكلف ، ومنهم من يقدم ويؤخر إماماً لضرورة وزن ، أو قافية وهو أعذر ، وإماماً ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام ، ويقدر على تعقيده ، وهذا هو العي بعينه ، وكذلك استعمال الغرائب التي يقل مثلها في الكلام ، فقد عيب على من لا تعلق به التهمة نحو قول الفرزدق :

على حالة لو أن في البحر حاتمًا على جوده ما جاد بالماء حاتم
فخفض حاتمًا — الأخيرة — على البدل من الماء في « جوده » حتى رأى
قوم من العلماء أن الإقواء^(١) في هذا الموضع خير من سلامة الإعراب مع
الكلفة^(٢) . . .

٣ — ابن رشيق الشاعر :

وكل ما تقدمه بين يدي القارئ من شعر الشاعر ، فتشور في بطون
الكتب ، وخاصة التراجم والطبقات ، ولم يجمعه ديوان خاص به ، وقد حاول
جمع منشوره هذا ، أبو البركات عبد العزيز الميمنى الأستاذ بالكلية الشرقية
في لاهور ، الهند . وقد اعتمدت عليه كثيراً فيما أقدم :

(١) الوصف :

زرافة

أهديت إلى المعز بن باديس زرافة رأها ابن رشيق فقال فيها :

ومجنوبةً أبداً لم تكن مذلةً الظهر للراكب^(٣)

(١) الإقواء : هو مخالفة بعض الأبيات لبعض في حركة الروى بالضم والكسر مثلاً .

(٢) العملة ج ٢ ص ١٧٤ ط هندية .

(٣) المجنوب والمجنوب : فرس كان فرسان العرب يسوقونه إلى جنب فرسهم الذي يركبون ليستبدلوه

به ، ولم تكن مذلة الظهر ؛ أى لم تعد للركوب .

قد اتصل بالجيد من ظهرها بمثل السنام بلا غارب^(١)
 مُلمّعة مثل ما لُمّعت بمخاء وشي يد الكاعب
 كأن الجوارى كنفتها لخالخ من كل ما جانب^(٢)

هلال رمضان

وقال يصف هلال رمضان ويشير إلى ما بنفسه نحوه إذ يلزمه الصيام والبعد عن الشراب :

لاح لي حاجبُ الهلال عشيًّا فتمنيتُ أننى من سحاب
 قلت : أهلاً وليس أهلاً لما قد بت ولكن أسمعها أصحابي
 مظهرًا حبه وعندى بغض لعدو الكئوس والأكواب

بحر هائج

وله في وصف البحر وقد ركبته إلى صقلية فعصفت الرياح ، وثارت الأمواج ولكن لم ينسه ذلك ذكر
 المحبوبة وتخيل مناجاتها :

ولقد ذكرتكَ في السفينة والردى متوقعٌ بتلاطم الأمواج^(٣)
 والبحو يهطيلُ والرياحُ عواصفُ والليل مسودُ الذوائبِ داجٍ^(٤)
 وعلى السواحل للأعداى غارة يتوقعون لغارة وتناج
 وعلت لأصحاب السفينة ضجةً وأنا وذكرك في ألد تناجٍ^(٥)

(١) الغارب ما بين السنام والعتق .

(٢) كنف الشيء إذا حاطه ليصونه ، وكنف الإبل عمل لها حظيرة .

(٣) الردى : الهلاك .

(٤) الذوائب جمع ذؤابة وهى خصلة من الشعر فى مقدم الرأس .

(٥) التناجى : المسارة بالأحاديث ، والنجى : السر ، ومن تفاوضه بالسر .

الثريا

وقال يصف الثريا :

يا حبّذا من بنات الشمس سائلة* على جوانبها تهفو المصابيحُ
كأنها ربوة صماء كَلَّلها نَوْرُ البَهَارِ وقد هبت لها ريحُ

فواكه وزهور

وله في التاريخ ، ووصف الزهور والنور والرياحين بما أجاد فيه أيما إجادة :

ودوحة نارنج بُهِتْنَا بحسنها وقد نشرت أغصانها للتأود^(١)
ونارنجها فوق الغصون كأنه نجوم عقيق في سماء زبرجد^(٢)

وقريب منه قول ابن المعتز :

وكانما النارنج في أغصانه من خالص الذهب الذي لم يخلط
كرة رماها الصوبلحان إلى الهوا فتعلقت في جوه لم تسقط

وله يصف البنفسج :

بنفسج جاءك في حين لا حرّ يرى فيه ولا فرط برّد
كأنه لما أتينا به منغمس الأثواب في اللازورد^(٣)

وله فيه أيضاً :

رأيت شقيقة حمراء باد على أطرافها لطح السواد
يلوح بها فأحسن ما تراه على شفة الصبي من المداد

(١) التأود : التفتي .

(٢) العقيق : حجر كريم أحمر اللون ، والزبرجد : أخضره .

(٣) اللازورد : زهر .

وقال في الموز :

لله موزٌ لديدٌ يعينه المستعينُ
فواكهٌ وشرابٌ به يُداوى الوقيدُ^(١)

رحلة

وقال في السفر والارتحال :

وماءٍ بعيدٍ الغور كالنَّجم في الدُّجى
وردتُ طروقاً أو وردتُ مهجراً
على قدمٍ أخت الجناح وأخص
يخال حصا المعزاء جَمراً مُسَعِّراً^(٢)
فريداً من الأصحاب صلتنا من الكُسا
كما أسلم الغمدُ الحسامَ المذكراً^(٣)

خال جميل

وله في وصف خال بدا تحت لحي صاحبه :

حبذا الخالُ كامناً منه بين الـ
رام تقبيله اختلاسا ولكن
سجيد والحمد رقةٌ وحذارا
خاف من سيف لحظة فتواري

(١) الوقيد : الصريع أو المشرف على الموت .

(٢) أخت الجناح : يريد السرعة . والأخص : الضامر البطن وذلك من صفة الجمال في الخيل ، المعزاء ، الأمز من الأرض : الصلب الكثير الحجارة والحصى .

(٣) صلتنا من الكسى : وصف للفرس يريد أنه أجرد من الشعر وتلك أيضاً من شيات الأصالة في الخيل قال امرؤ القيس :

وقد اغتدى والطير في دكناتها بمنجر قيد الاوابد هيكل

مطلع الفجر

وله من الرجز في طلوع الصبح :

كأنما الصبحُ الذي تفرّى
ضمَّ إلى الشرق ، النجومَ الزُّهرا
فاختلطت فيه فصارت فجرا

الطبيعة في الشتاء

ووصف الغيم والمطر والبرق فقال :

خليليَ هل للمُزَنِ مقلة عاشقٍ أم النارُ في أحشائها وهي لا تدرى
سحابٌ حكت ثكلى أصيب وحيدها فعاجت له نحو الرياض على قبر (١)
تُرْقِرُق دمعاني خدودٍ توشحت مطارفها بالبرق طُرزا من التبر (٢)
فَوَشَى "بلا رَقَمٍ ونَسِجٍ" بلا يدٍ ودَمَعٌ "بلا عينٍ وضحكٍ بلا ثغر

أترجة

قال ابن بسام في الذخيرة : دخل ابن رشيقي على المعز بن باديس يوماً ، وفي يده أترجة كأنها
واسطة ذهب ، أو جلوة لُهب ، قال ابن رشيقي : فأشار إلى بوصفها فقلت للخاطر :

أُتْرُجَّةٌ سَبَّطَةٌ الأطرافِ ناعمةٌ
تَلْقَى النفوسَ بحظٍ غيرِ منحوسٍ
كأنما بَسَطَتْ كَفًّا لخالقها
تدعو بطول بقاء لابن باديس

(١) عاج : مال .

(٢) طرزا : جمع طراز وهو القطعة من النسيج . والتبر : الذهب ، توشحت : تغطت
والمطارف الأردنية وفي البيت تشبيه بديع للسحاب ينزل منه المطر ويلمع في جنباته البرق كالذهب .

غلط الليل

وله في طول الليل :

قد طال حتى نخلته من كل ناحية وسط
وتكررت فيه المنازل منه لامنّي الغلط

الطبيعة

وقال في كتابه الأنموذج ، خرج أبو العباس ابن حديدة القيرواني في جماعة من رفقائه طالباً
للتنزه ، فحلوا بروضه قد سفرت عن وجنات الشقيق وأطلعت في زبرجد الأرض الخضراء نجوماً من عقبه .
والجو قد أفرط في تميسه ، ونثر لفيظه جميع ما كان من لؤلؤ القطر في كيسه ، فقال ابن حديدة .
أو ما ترى الغيث المعرّس باكياً يذري الدموع على رياض شقيق^(١)
فكان قطر دموعه من فوقها درّ تبدّد في بساط عقيق^(٢)
قال ابن رشيق - وأنشد نهما فأجزتهما بأن قلت :

فاجمع إلى شكليهما بزجاجة شكلين من حبّ وصفو رحيق
فكأنما انتصرا لعبرة عاشق مهراقة في وجنتيّ معشوق^(٣)
وله أيضاً في المعنى نفسه :

نظرت إلى البستان أحسن منظر وقد حجب الأغصان شمس المشارق
به زوج رمان يلوح كأنه قناديل تير محكمات العلائق

طير أباييل

وقال في الصيد :

طير أباييل جاءتنا فما برحت إلا وأقواسنا الطير أباييل^(٤)

(١) رياض شقيق : الشقيق زهر أحمر برى ، ومنه شقائق النعمان ، المعرّس : المقيم
يريد المتواصل هطوله .

(٢) بساط للعقيق يريد به الخضرة تكسو الأرض . ويريد بالندر قطر الغيث على التشبيه .

(٣) هراق الماء إذا صبه وأراقه ، والوجنة ما ارتفع من الحدين وجمعه وجنات .

(٤) أباييل : كثيرة .

ترميهمُ بحصى طير مسومة كأن معدنها للرمي سجيل^(١)
تعدو على ثقة منا بأطيبها فالنارُ تُقدَحُ والطننجير مغسول^(٢)

مناجاة

وقال في الليل وقد طال :

أقول كالمأسورِ في ليلة ألفتُ على الآفاق كلكالتها^(٣)
يا ليلةَ الهجو التي ليتها قطع سيفُ الهجر أوصالها
ما أحسنتُ جُملاً ولا أجملت هذا وليس الحسن إلا لها

تفاحة

ووصف تفاحة فقال :

تفاحةٌ شاميةٌ من كف ظبي أكحل
ما خلقت مذ خلقت تلك لغير القبلى
كأنما حمرتها حمرةُ خد خجيل

ذكور الحجل

وقال وأبدع في وصف العاقيب وهي ذكور الحجل ذلك الطائر الطيب اللحم الجميل الخلق الحسن الزينة .

ما أغربت في زِيها إلا يعاقيب الحجل
جاءتك مثقلةً الترا تب بالحلي وبالحلل

(١) مسومة : معلمة . والسجيل حجارة كالطين اليابس .

(٢) الطنجرة : قدر من نحاس ، وهي من النخيل ، الطنجير : لنفس المعنى . وفاعل تعدو هو ضمير الأقواس في البيت الأول .

(٣) المأسور : من وقع في الأسار . والكلكال والكلكل شيء واحد .

صفر العيون كأنها باتت يتبر تكتحل^(١)
وتخالها قد وكلت بالنون والصوت الزجل
وكأنما باتت أصا بعها بجناء تَعَلَّ
من يستحل لصيدها فأنا امرؤ لا أستحل

هدية من هدايا الملوك

وقال رحمه الله في العدة : وصنعت أنا في زرافة أتت في الهدية من مصر إلى مولانا - المعز
من قصيدة طويلة :

وأنتك من كسب الملوك زرافة* شتى الصفات لكونها إثناء
جمعت محاسن ماحكت فتناسبت في خلقها وتنافت الأعضاء
تحتثها بين الخوافق مشية* باد عليها الكبر والخيلاء^(٢)
وتمد جيداً في الهواء يزينها فكأنه تحت اللواء لواء
حطت مآخرها وأشرف صدرها حتى كأن وقوفها إقعاء^(٣)
وكان فهر الطيب مارجمت به وجه الثرى، لو لمّت الأجزاء^(٤)
وتخيرت دون الملابس حلة* عيّت لصنعة مثلها صنعاء^(٥)
لوناً كلون الزبل إلا أنه حلى وجزع بعضه الجلاء
أو كالسحاب المكفهرة خيَّطت فيه البروق ؛ وميضها الإيماء
أو مثل ما صدثت صفائح جوشن وجرى على حافاتهن جلاء^(٦)
نعم التجافيف التي أدرعت به من جلدها لو كان فيه وفاء

(١) التبر : الذهب يريد صفرة عينه . (٢) تحتثا : تحثا على المسير .

(٣) الإقعاء : جلوس الكلب على مؤخرته قالوا :

يقع جلوس البلى المصطلى

(٤) فهر الطيب : الفهرة حجر رقيق تسحق فيه الأدوية ويريد الشاعر به ماس الأرض
قوائمها . لمّت الأجزاء : جمعت .

(٥) صنعاء : هي صنعاء اليمن ، مدينة شهيرة بصناعة النسيج المنقوش . وعيت : عجزت .

(٦) الجوشن : الدرع .

في حمام

وقال يصف جماعة في حمام من حمامات العصور البائدة . والتي لا تزال منها بقية في أحياء القاهرة القديمة ، وكذا في دمشق :

ومرتهن لدى الحمام أضحى وحالاه كأصحاب السعير
إذا سثموا العذاب أو استغاثوا أغاثوهم بباب الزمهير
كذلك حاله حرّاً وبسرداً بيت الحوض أو بيت الطهور^(١)

(ب) الملح والنوادر :

وهو باب وضعنا تحته كل شعر فكه طريف ، وإن أمكن وضعه تحت باب آخر .

إن شر التواب

قال يومى بالبغل :

فأوصيكم بالبغل شراً فإنه من العيسر في سوء الطباع قريب
وكيف يحيى البغل يوماً بحاجة تسرّ وفيه للحمّار نصيب؟

الشريا

وجمعه يوماً وعبد الوهاب بن محمد الأزدي المعروف بالتمّال مجلس ، فأنشده ابن رشيّق قوله من قصيدة :

والثريا قبالة البدر تحكى باسطاً كفّه ليقبض جاما^(٢)

وقوله :

رأيت بتهرام والثريا والمشرى في القران كرة
كراحة خيّر فحارت ما بين ياقوتة ودرّة

(١) بيت الحوض وبيت الطهور : مكانان في الحمامات العامة أولهما يملأ بالماء الساخن لإزالة ما علق على الجسوم من درن ، والثاني يملأ بالماء البارد لتنطهر قبل مغادرة الحمام .

(٢) الثريا : سبعة كواكب في عتق الثور ، والجام : الكاس .

فاستظرف الشعر عبد الوهاب وأنشده :

يا سائقَ الراحِ اسقُ صحبي	وواسني إنني أواسي
وانظر إلى حيرة الثريا	والليلُ قد شدَّ بأمراس ^(١)
ما بين بهرامها الملاحى	وبين برجيسها المواسي
كأنها راحة أشارت	لأخذ تفاحة وكاس

وكانما كانت بينه وبين البغل صلة ، فا أكثر ما يقول فيه ، ومن ذلك قوله وقد ركب بغلة :

كأنى بعض نجوم السماء	تَصَعَّدَ في الجو ثم انحدر
على رَسَلَةٍ من هبات الملوك	سفواء ملمومة كالحجر ^(٢)
تعاونَ في جدل أعضائها	بنو أخدر وبنات الأغر ^(٣)

بغلة سفواء

وفي البغال أيضاً :

أو بغلة سفواء تعرض للفتى	فتُخالُ تحت السرج أم غزال
سألت إلى الأم النجابة من أب	وزهت على الأعمام والأنحوال
وكانها قد أفرغت في قالبي	لا أنها خلقت على تمثال

وله في التلاعب باللغة فصحت الدينار والدرهم :

صحفت دالين من دي	نار يلوح ودرهم
فقال لي ذلكم ذى	نار ، وذا قال « درهم »

(١) الأمراس : الحبال .

(٢) يريد قليلة شعر الناصية ، وذلك من علام النجابة في الخيل والبغال .

(٣) بنو أخدر يقصد الحمار الوحشي أو الحمار الأسود ، وهذا أقرب ، وبنو الأغر يريد به كرام الخيل وذلك أن البغل يأتي من وقوع حصان على أتان أو حمار على فرس .

وله أيضاً في وصف بغلة :

إذا أقبلت أقمت وإن أدبرت كبتت
وتعريضٌ طولا في العنان فتستوى^(١)
وكلفت حاجاتي شبيهة طائر
إذا انتشرت ظلت لها الأرض تنطوى

(ح) الحكمة :

وذلك باب لابن رشيقي فيه شعر كثير مشور في كتبه ، وفي غيرها من الكتب التي عرضت له .
وقد اخترت له منه :

في الإعراض عن الجاهل

قال في الإعراض عن الجاهل :

أيها الموحى إلينا نفثة الصل الصموت^(٢)
ما سكتنا عنك عيّا ربّ نطق في السكوت
لك بيت في بيوت مثل بيت العنكبوت
إن يهن وهنا فقيه حيلنا مكني وقوت^(٣)

لعنة الشيطان

وقال في التحريض على مخالفة الشيطان بعد أن صور مداخلة على الإنسان :

أرى الشيخ إبليس ذاعلة فلا برأ الشيخ من عيلته
يقود على الحب مستيقظا ويأتيك بالليل في صورته

(١) أقمت : وقفت على مؤخرتها منع الكلب في جلسته .

(٢) الصل الصموت : الحية والداحية .

(٣) الوهن : الضعف .

فيؤتيك ما شاءَ من نفسه ويبلغُ ما شاءَ من لذّته
ومن كان ذا حيلةٍ هكذا تَمَثَّلُ للمرءِ في يقظته
فلا تنزخروا دونه لعنةً لأن رضا الله في لعنته

وشاورهم في الأمر

وله في أدب المشاورة :

أشاورُ أقوامًا لآخذَ رأيهم فيلوونَ عني أعيانًا وخُدودا^(١)
وليس برأيي حاجةٌ غيرَ أني أونسه كيلا يكون وحيدا^(٢)
ولا أنا ممنُ يبعثُ السَّهمَ راميًا إلى غرضٍ حتى يكون سديدا
فلا يتهم عقلي الرجالُ ، فاني أعرفهم أني خلقتُ ودودا

تجربة وخبرة

وقال عن تجاربه وكيف عزم على القصد في النفقة ولكن نفسه لم تطاوعه :

قد أحكمتُ مني التجار ب كل شيءٍ غيرَ جودي
أبدأ أقول لئن كسب ت لأقبضن يدي شديدا
حتى إذا أثريتُ عُد ت إلى السَّاحة من جديد
إن المُقامَ بمثلِ حا لي لا يتمُّ مع القعود
لا بدُّ لي من رحلة تُدني من الأمل البعيد

عزة وإباء

قال في الانتصاف للنفس :

إذا لم تجد بداً من القول فانتصف

بجد لسان كالحسام المهتد

(١) لوى عني وجهه : إذا أعرض .

(٢) أونسه : أجعل له مؤنساً من رأي غيري قال الشاعر :

فرايان أحسن من واحد ورأي الثلاثة لا ينقص

فقد يَدْفَعُ الإنسانُ عن نفسه الأذى
بِمَقُولِهِ : إن لم يدافعه باليد^(١)

وقال في قريب من هذا :

خذ العفو ، وأبِ الضيم ، واجتنب الأذى
وأغضِ تسد ، وارفق تنل ، واسخِ تحمد^(٢)

الناس معادن

وقال عن الناس ومذاهبهم :

في الناس من لا يُرتجى نفعه إلا إذا مُسَّ بإضرارٍ
كالعود لا يُطعم في طيبه إلا إذا أُحرق بالنار

عش عزيزاً

وله أيضاً :

الأسر خيرٌ من الفرار والقتل خيرٌ من الإِسار
وشرُّ ما خِفْتَهُ حياةٌ أدت إلى ذلَّةٍ وعارٍ

وقال في خيانة الأصدقاء :

صديق المرء كالدينار طبعاً وكيف يفارق المرء الطباعا
تراه إذا أقام يقيم جاها وإن فارقت أجدى انتفاعا

حسن معاملة

وله في الإخوان :

من جفاني فإني غيرُ جافٍ صلةٌ أو قطيعةٌ في عفافٍ
ربما هاجر الفتي من يضاف به ولاقي بالبشر من لا يضاف^(٣)

(١) المقول : اللسان .

(٢) الضيم : المذلة والهوان . وأغضى عن الأمر : إذا لم يعره بالا .

(٣) هاجر : هجر .

نصيحة

وله ينصح :

اختر لنفسك من . تَعَا دى كاختيارك من تصادق
إن العدو أخو الصديق ق وإن تخالفت الطرائق

ويقول في موقف آخر :

اصحَبْ ذوى القدر واستعذبهم وعدّ عن كل ساقط سفله
فصاحب المرء شاهد ثقة يقضى به غائباً عليه وله
ورقة الثوب حين تلبسه شهرته ، أو تكون مُشْتَكَلَه (١)

حسن سياسة

ويقول في صلاته بالآخرين :

أحبّ أخى وإن أعرضتُ عنه وقَلْ على مسامعه كلامى
ولى فى وجهه تقطيبٌ راض كما قطبت فى إثر المدام (٢)
ورب تَقَطَّب من غير بغض وبغضٍ كامن تحت ابتسام

ونختم هذا الباب بقوله الناتج عن خبر الحياة :

لو قيل لى خذ أماناً من حادثات الزمان
لما أخذت أماناً إلا من الإخوان

(١) مشتكلة : مشاكلة للثوب فى لونه وجنسه .

(٢) التقطيب : التكثير . والمدام والمدامة : الخمر .

(و) الغزل :

لوعة

وله في هذا الباب شعر فيه تكشف منمك عن ذكره ونعرض عليك عما لا يحرج الحياء .
قال ، وفيه مبالغة طريفة :

إن كنتَ تنكر ما منك ابتليتُ به
فإن بُرء سِقامِي عزَّ مطلبُهُ
أشْرُ بعودٍ من الكبريت نحو في
وانظر إلى زَفَرَاتِي كيف تُلهيه (١)

ليلة

وقال : كما قال الميسني - في غرض يظهر من الأبيات :

ومن حسنات الدهر عندى ليلةٌ من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونا بها ننفى القلدى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبا (٢)
وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير تلتقط الحبا (٣)

سمراء

وقال يصف سوداء ويدعوها للاعتزاز بسوادها :

دعا بك الحسنُ فاستجيبى يا مِسْكُ في صبغة وطيب
تبهى على البيض واستطيلى تيهَ شبابٍ على مشيب

(١) الزفرات جمع زفرة وهي التنفس مع مد النفس .

(٢) القلى : ما يصيب العين من رمص : ذهباً سكبا : مسكوباً .

(٣) جنوح الطير : ميلها ويقال جنحت السفينة إذا انعرفت .

ولا يرعك اسودادُ لونِ كملةِ الشادن الربيب^(١)
فإنما النور عن سوادٍ في أعين الناس والقلوب^(٢)

شوق ولوعة

وله في النسيب وقد برح به الشوق :
من ذا يعالج عني ما أعالجه من حرّ شوق أذاب القلب لأعجه^(٣)
ومن يكنّ لرئيس الشوق داخله يكنّ لفرط الضنى والسقم خارجه^(٤)
كادت خلاخيل من أهوى تبوح به
مرا وغصت بما فيها دمالحه^(٥)

زيد وعمرو

وقال وأبدع في وصف الحبيبة وبيان مفاتها في أجمل صورة جعلها شغله واشتغاله .

بين أجفانك سحرُ ولأغصانك بدرُ
جردت عيناك سيفي ن ، لذا أمرك أمر

(١) الشادق : الغزال . الربيب : ابن الزوج ، وهنا المربوب المربي في النعمة .
(٢) قال ابن رشيق أخذته من قول الآخر ، أنشده الجاحظ :
مشبهات الشباب والمسك تفد يهن نفسي من الردى والخطوب
كيف يهوى الفقى الليب وصال البيض ، والبيض مشبهات المشيب
وعلق الشريشى على ذلك فقال : وأخذ بيته الآخر من قول الآخر ، أنشده الجاحظ أيضاً :
وإن سواد العين في العين نورها وما لياض العين نور فيعلم
وفي المعنى أيضاً قول ابن رباح :
وسوداء الأديم إذا تبت يرى ماء النعيم جرى عليه
رأها ناظري فصبا إليها وشبه الشيء منجذب إليه
وقد أكثر الشعراء من الخوض في المفاضلة بين البيض والسود .

(٣) لاعج الشوق : شديد .
(٤) الرئيس : أول الشيء . فرط الضنى : غاية السقم .
(٥) الدمالج ج . دملج والدملج : حل يلبس في المعصم كالأساور .

فعلی خدیك من نَزَرُ فِ دَمِ العُشاقِ أَثَرُ
ومن الكُتبانِ شَطَرُ لك والأغصانِ شَطَرُ
وسواءُ قلتُ درُ ما أرى أو قلتُ ثَغَرُ
وبماذا أَصِفُ الحَصَّةُ ر وما إن لك خَصَرُ^(١)
بك شغلي واشتغالي ومضى زيد وعمرو

عبرة وبكاء

وقال في موقف وداع وقد اختفى في الحمام ليكي في غفلة الرقباء :

ولم أدخل الحمام ساعة بينهم لأجل نعيم ، قد رضيت ببوس
ولكن لتجري عبرتي مطمئنة فأبكي ولا يدري بذلك جليسي

فتنة

وله في الجفون :

وفاتن الأجفان ذى وَجَنَة كأنها في الحسن وردُ الرياض
قلت له : يا ظني خذ مهجتي داو بها تلك الجفون المراض
فجاوبت من خده نخجلة* كيف ترى الحمرة فوق البياض!

جنود الملاحاة

وقال وقد اقتبس من القرآن الكريم بعد أن جالس :

أسلمني حُبَّ سليمان كَو إلى هوى ، أيسره القتل
قالت لنا جند ملاحاته لما بدا ما قالت النمل
« قوموا ادخلوا مساكنكم قبل أن تحطمكم أعينه النجل »^(٣)

(١) إن في « ما إن لك خصر » لتأكيد النفي .

(٢) الوجنة : ما علا من الخد .

(٣) مأخوذ من قوله تعالى « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » .

حب المنام

وقال في بغض أهل الهوى لأهل النسيمة وتلاعب بالألفاظ :

لَمْ كره المنامَ أهلُ الهوى! أساء إخواني وما أحسنوا
إن كان نماما فمكوسه من غير تكذيب لهم « مأمّن »

(هـ) الغلمان :

ولم في حياة ابن رشيق شأن ، يذكرهم في شعره ، ويتحدث عن معاشتهم ، وإليك بعض ما وقفنا عليه له . على أننا أمسكنا من بعضه أن نذكره قال يصف واحداً منهم :

أوما إلى

ومنهف يحميه عن نظر الورى	غيران ، سكنى الموت تحت قبابه
أوى إلى أن اثنى فأتيته	والفجر يرمق من خلال نقابه
فلثمت خذا منه ضرّم لوعتي
.....
فكان قلبي من وراء ضلوعه	طربا يُخَبِّرُ قلبه عما به

سورة الحمد

وله في آخره يعوّذه بسورة الحمد :

معتدل القامة والقد	مورّد الوجنة والحد
لو وُضع الوردُ على خده	ما عُرِف الحد من الورد
قل للذى يعجب من حسنه :	اقر عليه «سورة الحمد»

وقال وناولہ غلام — كانت له به صلوات — تفاحة :
وتفاحة من كف ظبي أخذتها جناها من الغصن الذي مثل قده
لها لمس

العمامة الحمراء

وقال في غلام معتم بعمامة حمراء :

يا من يمر ولا تم	ربه القلوب من الفسوق ^(١)
بعمامة من خده	أو خده منها استرق
فكانه وكأنها	قمر تعم بالشفق ^(٢)
فإذا بدا وإذا انثنى	وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا	نح والمسامع والحدق ^(٣)

وقال في ساق قهوة :

قم فاسقني قهوة إذا انبعثت	في باخل جاد بالذي ملكته
كان أيدى الرياح إذ بسطت	في متنه ، أظهرت لنا حبه

(١) الفرق : الخوف .

(٢) الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتها في أول قنوم الليل .

(٣) الحلق جمع حلقة يريد النظر .

قال ابن خفاجة في ديوانه : وخرجت يوماً بشاطبة إلى باب السارين ، ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية سنة ٤٨٠ هـ . وإذا بالفقيه أبي عمران ابن أبي تليد رحمه الله ، قد سبقني إلى ذلك فأنفيتها جالساً على دكان كانت هناك مبنية لهذا الشأن فسلمت عليه ، وجلست إليه مستأنساً به ، فجرى أثناء ماتنا شدة ذكر قول ابن رشيقي « يا من يمر » الخمسة الأبيات فقلت — وقد أعجب بها جداً وأثنى عليها كثيراً — أحسن ما في القطعة سياقة الأعداء . وإلا فأنت تراه قد استرسل ، فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله ، فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها ؛ وهل يتزل بإزاء قوله : « وإذا نطق » قوله « شغل » . الحلق « وكأنه نازمي القول في هذا غاية الجهد فقلت بنسأ :

وبهفهف طاروى الحشا	خنث المعاطف والنظر
ملا العين بصورة	تليت محاسنها سور

مدار الكئوس

وله في آخر :

بنفسى من سُكَّانِ صَبْرَةٍ واحد
هو الناسُ والباقون بعدُ فضول^(١)
عزيز ، له نصفان ، ذا في ازاره
سمين وهذا في الوشاح نحيل^(٢)
مدار كئوس اللحظ منه مكحل
ويقطف ورد الحد منه اسيل

إبليس

وقال في إبليس وما يهيء له من أسباب الملة :

رأيت إبليس من مروءته
لكل مالا يطاقُ محتملا
إذا هويتُ امرأاً وأعجزني
جاء به في الظلام معتقلاً
تبدلاً منه في حوائجنا
ولا يزال الكريم مبتدلاً

غلامه

وقال في محبوبه الصائغ الذى اشتهر به وجرت له معه قصص تحدث عنها :

وظي من بنى الكتاب يسبى
قلوبَ العاشقين بمقلته
رفعتُ إليه أستقضى رضاه
وأسأله خلاصاً من يديه
فوقع : قد رددت فؤاد هذا
مسامحه فلا يُعَدِّى عليه

فإذا	رنا	وإذا	مشى	وإذا شدا	وإذا سفر
فضح	الغزالة	والغمامة	والحماسة	والقمر	

فحين بها استحساناً .

(١) صبرة : اسم مدينة بشمال افريقية .

(٢) الوشاح قلادة من نسيج عريض يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عانقها وكشحيها . ج وشح .

(و) الرثاء :

وما كان لابن رشيق أن يخلو شعره من مرث ينشدها حين يفتقد عزيزاً ، أو يحامل ملكاً أو ولي
نعمة . أو يرى حضارة وقد ذهبت أو ملكاً وقد زال — فن رثاء الأشخاص قوله ، ويبدو أنه قاله في
عزيز أحبه :

المنايا حتم

المنايا حتم فطوبى لنفس سلمت بالرضا لحكم القضاء
لو بودى قتلت نفسى لألقا ه ولكن خشيت فتوت اللقاء

قاضي الحمديّة

ومن أبيات له سبقت في رثاء قاضي بلدة الحمديّة :

أما لئن صبح ما جاء البريدُ به عنه ليكثرُن من الباكين أشياعى (١)
ما زلت أفزع من يأس إلى طمع حتى تربّع يأسى فوق أطماعى (٢)
فالיום أنفق كثر العمر أجمعه لما مضى واحدُ الدنيا بإجماع

المعافى

وقال يرثى أبا إسحق إبراهيم المعافى التونسى ، وكان شيخاً جليلاً مثى في جنازته — اعترافاً بجميله —

المعز بن باديس —

يا للزينة في أبى إسحق ذهب الحمام بأنفس الأعلام

(١) أشياعى : أتباعى .

(٢) غلب يأسى طمعى .

ذهب الحمام بخاشع مبتل تبكى العيونُ عليه باستحقاق
 ذهب الحمام بيدر تيم لم يدع منه الردى إلا هلال محاق (١)
 وحوت جُثوب اللحد بحرًا آخرًا ترك البحار الحضر وهى سواق (٢)
 فالיום أغلق كل فهم بابه لما فقدنا فاتح الأغلاق
 ما القيروان أذقت ثكلك وحدها قد ذاق ثكلك سائر الآفاق

ومن رثاء الدول (١)

وكان لنكبة القيروان أكبر الأثر وآلمه على نفس ابن رشيقي ، فانطلق يبكى مجلدا وحضارته
 بنوئته الكبرى التى منها :

مرثية القيروان

كم كان فيها من كرام السادة بيض الوجوه شوامخ الإيمان
 متعاونين على الديانة والتقى لله فى الإسرار والإعلان
 ومهذب جم الفضائل باذل لنواله ؛ ولعرضه صوان
 وأئمة جمعوا العلوم وهذبوا سنن الحديث ومشكل القرآن
 علماء إن ساءلتهم كشفوا العمى بفقاهة وفصاحة وبيان
 وإذا الأمور استبهمت واستغلقت أبوابها وتنازع الحصان
 حلوا غوامض كل أمر مشكل بدليل حق واضح البرهان

(١) بدر التمر فى أوج اكتماله ، والمحاق القمر فى آخر الشهر .

(٢) سواق . ساقية .

(٣) رثاء الدول باب معروف فى الشعر العربى لا سيما فى المغرب والأندلس وقد جلت فى هذا الباب

ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب ومحمد بن عمارة اليمنى وغيرهم من الشعراء ولعل ابن رشيقي لا يقل عن
 أحدهم بقصيدته هذه المعارضة بقصيدة :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
 هى الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن سامتة أزمان

* * *

هَجَرُوا الْمُضَاجِعَ قَانَتِينَ لِرَبِّهِمْ
وَإِذَا دَجَا اللَّيْلُ الْبَهِيمُ رَأَيْتَهُمْ
فِي جَنَّةِ الْفَرْدَوْسِ أَكْرَمِ مَنْزِلٍ
تَجَرَّوْا بِهَا الْفَرْدَوْسَ مِنْ أَرْبَاحِهِمْ
الْمُتَّقِينَ اللَّهُ حَقُّ تُقَاتِهِ

طَلَبَا لَخَيْرِ مَعْرَسٍ وَمَعَانٍ
مُتَبَتِّلِينَ تَبَتَّلَ الرِّهْبَانِ
بَيْنَ الْحَسَنِ الْخَوَرِ وَالْغُلَمَانِ
نَعَمَ التَّجَارَةُ ، طَاعَةُ الرَّحْمَنِ
وَالْعَارِفِينَ مَكَايِدَ الشَّيْطَانِ

* * *

وَتَرَى جَبَابِرَةَ الْمُلُوكِ لَدَيْهِمْ
لَا يَسْتَطِيعُونَ الْكَلَامَ مَهَابَةً
خَافُوا الْإِلَهَ فَخَافَهُمْ كُلُّ الْوَرَى
تَنْسِيكَ هَيْبَتِهِمْ شِمَاخَةَ كُلِّ ذِي
أَحْلَامِهِمْ تَزِنُ الْجِبَالَ وَفَضْلُهُمْ
كَانَتْ تَعْدُ الْقُيُورَانُ بِهِمْ إِذَا
وَزَهَتْ عَلَى مَصْرٍِ وَحُقَّ لَهَا كَمَا

خَضَعُ الرِّقَابِ نَوَاصِيَ الْأَذْقَانِ
إِلَّا إِشَارَةً أَعْيُنَ وَبَنَانِ
حَتَّى ضَرَاءُ الْأَسَدِ فِي الْغَيْرَانِ
مُلْكٍ وَهِيبةً كُلِّ ذِي سُلْطَانِ
كَالشَّمْسِ لَا تَخْفَى بِكُلِّ مَكَانٍ
عُدَّ الْمَنَابِرُ زَهْرَةَ الْبِلْدَانِ
تَزْهَوُ بِهِمْ وَغَدَتْ عَلَى بَغْدَانَ^(١)

* * *

حَسَنَتْ فَلَمَّا إِذْ تَكَامَلَتْ حَسْنُهَا
وَتَجَمَّعَتْ فِيهَا الْفَضَائِلُ كُلُّهَا
نَظَرَتْ لَهَا الْأَيَّامُ نَظْرَةَ كَاشِحٍ
حَتَّى إِذَا الْأَقْدَارُ حُمَّ وَقُوعُهَا
أَهْدَتْ لَهَا فِتْنًا كَلِيلَ مَظْلَمٍ

وَسَمَا إِلَيْهَا كُلُّ طَرْفٍ رَانَ
وَعَدَتْ مَحَلَّ الْأَمْنِ وَالْإِيمَانِ
تَرْنُو بِنَظْرَةِ كَاشِحٍ مَعِيَانِ
وَدَنَا الْقَضَاءُ لَمَدَةً وَأَوَانِ
وَأَرَادَهَا كَالنَّاطِحِ الْعِيدَانِ^(٢)

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ - وَبَغْدَانُ لَفْظٌ فِي بَغْدَادِ .

(٢) الْمَعِيَانُ مِنَ الْعَيْنِ بِمَعْنَى الْحَاسِدِ ، الشَّدِيدُ الْإِصَابَةِ بِالْعَيْنِ .

(٣) « الْعِيدَانِ » كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّهَا الْمَلَوَانِ : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .

بمصائب من فادع وأشائب
فتكوا بأمة أحمد ، أترامهم
نقضوا العهود المبرمات وأنقضوا
فاستحسنوا غدر الجوار وآثروا
ساموهم سوء العذاب وأظهروا
والمسلمون مقسمون تنالهم
ما بين مصطرع وبين معذب
يستصرخون فلا يغاث صريخهم
بادوا نفوسهم فلما أنقذوا
واستخلصوا من جوهر وملابس
خرجوا حفاة عائلتين بربرهم

من تجمع من بني دهمان^(١)
أمنوا عقاب الله في رمضان
ذمم الإله ولم يفوا بضمان
سبى الحريم وكشفة النسوان^(٢)
متعسفين كوامن الأضغان^(٣)
أيدي العصاة بذلة وهوان
ومقتل ظلما وآخر عان^(٤)
حتى إذا شتموا من الإرنان^(٥)
ما جمعوا من صامت وصوان
وطرائف وذخائر وأوان^(٥)
من خوفهم ومصائب الألوان

• • •

هربوا بكل وليدة وفطيمة
وبكل بكر كالمهاة غريرة
نخود مبتلة الوشاح كأنها

وبكل أرملة وكل حصان^(٦)
تسبي العقول بطرفها الفتان^(٧)
قمر يلوح على قضيب البان^(٨)

• • •

(١) الأشائب جمع أشابة والأشابة أخلاط الناس ، ويقصد ابن رشيق أن قد أغار عليها الدهما
والعامة والأخلاط .

(٢) كوامن ج . كامن وهو الخفي .

(٣) عان : العانى ، الأشير .

(٤) الإرنان : النشاط .

(٥) أوان : ج إناء وأصلها أواني .

(٦) المرأة الحصان : العفيفة والعفيفة بالزواج .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية نصع بياضها .

(٨) الخود : الصبية في مقتبل العمر .

والمسجدُ المعمورُ جامعُ عقبة
 قفر فَمَا تَغشاهُ — بعد — جماعةٌ
 بيت به عُبِدَ الإله وبُطِلَتْ
 بيت بوحى الله كان بناؤه
 أعظمٌ بتلك مصيبتِهِ ما تنجلي
 لو أن ثهلانا أصيب بعشرها
 نخرِبَ المعاطنَ مظلمَ الأركان (١)
 لصلاةِ خَمَسٍ، لا ولا لأذان
 بعد الغلو عبادة الأوثان
 نعم البنا والمبْتَنَى والباقي
 حَسْرَاتُهَا أو ينقضي الملوان (٢)
 لتدكدكت منها ذرى ثهلان (٣)

* * *

حزنت لها كُورُ العراق بأسرها
 وتزعزعت لمصابها وتنكدت
 وعفا من الأقطار بعد خلائها
 وأرى النجوم طامع غير زواهر
 وأرى الجبال الشمَّ أمست خشعاً
 والأرض من ولهٍ بها قد أصبحت
 أترى الليالى بعد ما صنعت بنا
 وتعيد أرض القيروان كعهدها
 من بعد ما سلبت نضائر حسناتها
 وغدت كأن لم تغن قط ولم تكن
 أمست وقد لعب الزمان بأهلها
 وقرى الشام ومصرَ والحرمَان (٤)
 أسفاً بلاد الهند والسندان
 ما بين أندلس إلى حلوان
 فى أفقهن وأظلم القمران (٥)
 لمصابها وتزعزع الثقلان (٦)
 بعد القرار شديدة الميلاق
 تقضي لنا بتواصل وتدان
 فيما مضى من سالف الأزمان
 أيام واختلفت بهما ميثان (٧)
 حرماً عزيز النصر غير مهان (٨)
 وتقطعت بهم عُرَا الأقران

-
- (١) جامع عقبة : هو عقبة بن نافع فاتح تلك البلاد أول دخول الإسلام فيها .
 (٢) الملوان : الليل والنهار .
 (٣) ثهلان : جبل مشهور يضرب به العرب المثل فى العظم .
 (٤) يدل البيت على تضامن البلاد العربية قديماً .
 (٥) القمران : الشمس والقمر من باب التغليب كما يقولون « العمران » يعنون عمر وأبا بكر .
 (٦) الثقلان : الإنس والجن .
 (٧) كذا فى الأصل .
 (٨) كأن لم تغن : تزدهر والتعبير مأخوذ من القرآن « كأن لم تغن بالأمس » .

فتفرقوا أيدي سبا وتشتتوا بعد اجتماعهم على الأوطان
وقد شاع رثاء الدول في المغرب والأندلس وقصيدة لسان الدين بن الخطيب أشهر من أن نوردتها .

* * *

ز - الشكوى :

وشاعر كابن رشيق عاش بين الحساد والمنافسين ، ولاقى من حنت الأيام كما لاقى من نعمائها لا يخلو
شعره من شكوى . لن ذلك : قوله يشكو حرفة الأدب :

حرفة الأدب

أشقى لعقلك أن تكون أديباً أو أن يرى فيك الورى تهديبا
ما دمت مستويا ففعلك كله عوج وإن أخطأت كنت مصيبا
كالنقش ليس يصبح معنى ختمه حتى يكون بناؤه مقلوبا

التأسي

وقال يشكو التعزى والتأسي ، وأنها لا يذهبان بالأسى وإنما يجلبانه ويشيران أسبابه .

رأيت التعزى مما يهيج على المسره ساكن أوصابه (١)
وما نال ذو أسوة سملوة ولكن أتى الحزن من بابه
تفكر في مثل أرزائه فذكره ما به ما به (٢)

(١) أوصاب : جمع وصب وهو المرض والوجع الدائم وتحول الجسم .

(٢) الأرزاء جمع رزة وهو المصاب ينزل بالمرء وفي البيت جناس تام كقول القائل :
عضنا الدهر بنسابة . ليت ماحل بنا به

ليلة قصيرة

وله يشكو انصرام الليل وسرعة إقبال الصباح لعله ذكرها :

أيها الليل طر بغير جناح ليس للعين راحة في الصباح (١)
كيف لا أبغض الصُّباح وفيه بان عني أولو الوجوه الصُّباح (٢)

بعوضة

وقال يشكو البعوض :

يا رب لا أقوى على دفع الأذى وبك استعنت على الضعيف الموزى
مالى بعثت إلى ألف بعوضة وبعثت واحدة إلى نمرود ؟

شكوى الزمان

وله في شكوى الزمان والتعب :

ما أنت يا دهرُ بالأهوال تفجعنا
إلا كمن يقرعُ الجلمودَ بالخزف (٣)
إن كنت نت لسيف الغدر مُنتَضِياً
فإنسى من جميل الصمير فى كنف

جفوة

وقال يشكو بعض الغلمان ، وذلك أنه كان لمحمد بن حبيب التنوخى معشوق لا يزال يزوره إذا
إذا غاب عن منزله ، فإذا حضر لم يأتَهُ وكثر ذلك بينهما ، فلما ابن رثيق يوماً ، وقال له : تعال
نصنع فى ذلك المعنى ، فصنع الأبيات على لسان محمد وهى :

ما بالنا نُجنى فلا نُوصَل إلا خلافاً مثل ما تفعل

(١) يطلب إلى الليل ألا ينقضى ليستمع فيه كثيراً « طير بغير جناح » .

(٢) الصباح : جمع صبيح وهو الملبح .

(٣) مأخوذ معناه من قول الآخر :

كناطح صخرة يوماً ليونها فلم يضرها وأوى قرنه الوعل

تأتى إذا غبنا ، فإن لم نغب جعلت لا تأتى ولا تسأل
كهاجر أجابه ، زائر أطلهم بعد أن يرحلوا

صحبة الناس

وقال يشكو بعض معاصريه :

من يصحب الناس مطوياً على دَخلٍ لا يصحبوه فخلُّوا كل تدخيل
لا تستطيعوا على ضعتى بقونكم
إن البعوضة قد تعدو على الفيل
وجانبوا المزح ، إن الجدة يتبعه
ورب موجهة في إثر تقبيل
يا قوم لا يُلقيَنِي منكم أحد
في المهلكات فإني غير مغلول

(ح) التعريض والهجاء :

وقد أسبقنا أنه كان أبعد الناس من هجاء ، وكثر ما دعا الشعراء إلى عدم التعريض لما يجلب عداوات
الناس . ولذا جاء ما جاء له في هذا الباب وأكثره تعريض لا يعرف التصريح إلا قليلا . وذلك قوله
يعرض بكاتب رد أمر محمد بن هرون :

تعريض بكاتب ابن هرون

أرى بعض من أنت صيرته من الناس ، يعزرك تعيره

(١) الأطلال جمع طلل وهو ما بقى من آثار الديار بعد هجرها .

(٢) الدخل . الغش ، وانطوى على دخل ضم صدره عليه .

تُنافِسُ أفعالَكَ أفعاله وينقص جاهلك تأثيره
كما كسف الشمس بدر الدجى وإن كان من نورها نسوره

اعتداء

وقال ابن رشيقي : كنت أميل إلى قينة اسمها ليلي ، فعشقها بعض خدام الحصون ، وكان يحسب خدمتها وكنسها لمنزله لا يثلم جاء متوليها ، فنهيت ، فلما لم يته قلته فيه :

ظن أن الحصون ملكٌ سليماً ن وليلى بجهله بلقيساً
وله في العصا مآرب أخرى حاش لله أن تكون لموسى

البرغوث

وقال في شخص مجاه : .

يا موجعي شئاً على أنه لو فَرَكَ البرغوث ما أوجعنا
كل له من نفسه آفةٌ وآفة النحلة أن تلسعا

مغتاب

وقال فيه أو في مثله : .

وأخرق أكالٍ للحم صديقه وليس لبحارى ريقه بمسيغ
سكت له ضناً بعرضي فلم أجب ورب جواب في السكوت بليغ

ط — العتاب :

وهو من الهجاء بسبب ، ولذلك قل في شعره كما قل هذا الهجاء الذي كان يتعاشاه =
فن ذلك قوله يعاتب القاضي جعفر بن عبد الله الكوفي بقصيدة طويلة هذه أبيات منها :

عتاب القاضي جعفر

وقد كنت لا آتي إليك مخاتلاً^(١) لديك ولا أثني عليك تصنعاً^(١)
ولكن رأيت المدح فيك فريضة
فقممت بما لم يخف عنك مكانه
ولو غيرك الموسوم^(٢) عني بريية
فلا تتخاللك الظنون^(٣) فإنها
فوالله ما طولت بالآوم فيكم^(٤)
ولا ملت عنكم بالوداد ولا انطوت^(٤)
بلي، ربما أكرمت^(٤) نفسي فلم تهن^(٤)
ولم أرض بالحظ الزهيد ولم أكن
قباينت^(٤) لا أن العداوة باينت
ألوذ^(٥) بأكناف الرجاء وأتقى
لديك ولا أثني عليك تصنعاً^(١)
على إذا كان المديح تطوعاً
من القول حتى ضاق مما توسعا
لأعطيت منها مدعى القوم ما ادعى^(٢)
ما ثم^(٣)، وأترك في الصنع موضعاً^(٣)
لساناً ولا عرضت للذم مسمعا
حبالي ولا ولتي ثنائى مودعا
وأجللتها عن أن تذلل وتخضعاً
ثقيلاً على الإخوان كلاً مدفعاً^(٤)
وقاطعت^(٤) لا أن الوفاء تقطعا
شمت العدى إن لم أجدفك مطمعا^(٥)

(١) المخاتل : المخادع والمخاتلة : الخداع .

(٢) البرية : ما يريب من عمل أو سلوك .

(٣) تتخاللك : تتجاوزك .

(٤) الكل : العيب .

(٥) ألوذ : أحتسى .

تلطف

وقال ورق حديثاً :

أراك اتهمتَ أخاك الثقة وعندك مقتٌ وعندى مقة (١)
وأثنى عليك وقد سوتنى كما طيب العودُ من أحرقه

رجاء

وقال يعتب بعد ياس استحکم :

رجوتك للأمر المهم وفى أيدى بقايا أمنى النفس فيها الأمانيا
فساوتَ بى الأيامَ حتى إذا انقضت
أواخرُ ما عندى قطعتُ رجائيا (٢)
وكنت كأتى نازفُ البئرِ طالبا
لإجمامِها ، أو يرجع الماءُ صافيا
فلا هو أبى أما أصابَ لنفسه
ولا هى أعطته الذى كان راجيا

ى - المدائح :

ونحن نعلم أن ابن رشيقي عاش حياته للمعز بن باديس ، ولا بن أبي الرجال وزيره وكاتبه ، ثم تميم بن المعز ، ومع ذلك لما وصل إلينا من شعر الملاح عنده لا يتكافأ وهذه الحياة الحافلة الطويلة ، ولكن لعله ضاع فى غمار ما ضاع من آثاره . وإليك بعض ما وقفنا عليه فى هذا الباب . قال يخاطب واحداً من مملوحيه لم نعرف شخصه :

(١) المقة : الحب وتوافق الرجلان : تحابا .

(٢) ساوت وسوت بمعنى .

يراعة ومداد

كبت ولو أننى أستطيعُ لإجلالِ قدرك دون البشر
قددتُ اليراعةَ من أعملى وكان المدادُ سوادَ البصر

لدن الرماح

وقال يمدح المعز من قصيدته التى دخل بها فى خدمته فلزم الديوان وأخذ الصلات :

لُدْنُ الرماحِ لما يسقى أستمها من مهجة القسيْل من ثُغرة البطل^(١)
لو أثمرت من دم الأعداءُ سُمُرَقَنَّا لأورقتْ عنده سُمُرُ القنا الذبل^(٢)
إذا توجه فى أولى كتائبه لم تفرق العينُ بين السهل والجبل
فالجيش ينفض حوله أسته نفص العقاب جناحيه من البلل^(٣)
يأتى الأمور على رفق وفى دعة عجلان كالفلك الدوار فى مهل

رايات

وله فيه

وكأنما راياته مشهورةٌ يوم اقتحامه
أبدًا تشير إلى العد وبسلمه أو بانهزامه^(٤)

وثن الملاحة

وله فيه كلك :

ذمت لعينك أعين الغزلان قمر أقر لحسنه القمران

(١) القيل : لقب للسادة والملوك من حمير .

(٢) القنا الذبل : صفة جودة فى الرماح . ج . ذابلة .

(٣) العقاب : طائر من الجوارح يطلق على الذكر والأنثى .

(٤) بسلمه : بانتصاره وسلامته .

ومشت ، ولا والله ما حَقَّفُ النِّقَا
وثنُ الملاحَةِ غيرَ أن دِيانتي
يا بن الأعزَّة من أكابر حمير
من كل أبلجَ أمرٍ بلسانه
نما أرتكَّ ولا قضيبُ البان^(١)
تأبى على عبادة الأوثان
وسلالة الأملاك من قحطان
يضع السيوف مواضع التيجان^(٢)

ك - الحمر :

وبرغم ما يبدو من ولوعه بها في بعض ما يقول فإن ما وصل إلينا عنه فيها نزر يسير لا يسع
باعتباره من أصحاب الحمريات ، وهناك بعض ما قال : قال من خمرية لم أعر منها على غير هذه الأبيات

من خمرية

قَدَّرُ المدامة فوق قدر الماء
مالي ومزجَ الراح إلا في في
ذاك المزاج وإن تعداني الذي
أشهى وأبلغ في الفؤاد مسرة
لي الصرْفُ إن فرح النديم ولم أكن
فارغَبُ بكأسك عن سوى الأكفاء^(٣)
بالريق من فم غادة حسناء^(٤)
في المزن من ذى رقة وصفاء
من غيره وأدب في الأعضاء
مستأثراً فيها عن الندماء^(٥)

كما جاءها ربها

وقال :

قلت لمن ناولني مرة ما بي حب الغيد بل حبها^(٦)

(١) الحقف : ما أعوج من الرمل .

(٢) البلجة : البياض .

(٣) الأكفاء : ج كفاء وهو الند المماثل .

(٤) الراح : الحمر .

(٥) الصرف : الخالصة من المزج .

(٦) الغيد : ج غادة . وهي الفتاة الحسنة .

لا تسقى الراح ممزوجة واشرب فما يمكنى شربها
ما راحنى فى الراح إن غيرت دعنى كما جاء بها ربها

معتقة

وقال :

معتقة يعلو الحجابُ متونها فتحسبُه فيها نثر جُمان^(١)
رأت من بلجين راحةً لمديرها فطافت له من عسجدٍ ببنان^(٢)

ل - الشيب :

وهو باب طرفه الشعراء بين راحه عنه ، وساخط عليه ، وما قاله فيه ابن رشيق :

بلق الغراب

وإن لم تعجبي ببياض شعر فلا تستغربي بـلـق الغراب^(٣)
تعافين المشيبَ وليس هذا ولكن هذه شـيـةُ الشباب^(٤)

الشيب أوفى من الشباب

وقال أيضاً :

أراك للشيب ذا اكتئاب فأين تمضى عن الصواب
إن كنت ترعى الوفاء حقاً فالشيبُ أوفى من الشباب

(١) الجمان : اللؤلؤ وأحدثه جمانة .

(٢) اللجين الفضة ، والمسجد الذهب وكلاهما فى البيت على التشبيه .

(٣) بلق الغراب : بياضه فى سواده .

(٤) عاف الشيء : إذا كرهه .

م - التوبة :

وهذا باب قال فيه ابن رشيقي، وكأنما أحس بما فرط في حق نفسه وفي جنب الله فراح يستغفر الله مما قدم؛ فن ذلك قوله يظهر الندم على ما فات :

دعاء ورجاء

وحيء بالأمم الماضين والرسل	إذا أتى الله يوم الحشر في ظلل
أنفاسهم ونوفاهم إلى أجل	وحاسب الخلق من أحصى بقدرته
تسوؤني وعسى الإسلام يسلم لي	ولم أجد في كتابي غير سيئة
ورحمة الله أرجى لي من العمل	رجوت رحمة ربي وهي واسعة

المراجع

- ١ - الذخيرة ابن بسام
مصور عن مخطوط الجزائر الرباط بمكتبة جامعة القاهرة
- ٢ - رايات المبرزين مجهول المؤلف
مكتبة الأزهر (مخطوط)
- ٣ - مسالك الأبصار ابن فضل الله العمرى
مصور عن مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٨ تاريخ
- ٤ - ابن رشيق السلفيه ١٣٤٣ هـ .
للميمنى
- ٥ - اعلام الكلام ابن سرف
الخانجى ١٩٢٦ م .
- ٦ - بساط العقيق حسن حسنى عبد الوهاب باشا
تونس ١٣٣٠ هـ .
- ٧ - تيارات أدبيه ابراهيم سلامه
الانجلو ١٩٥٤ م .
- ٨ - الحركة الفكرية فى مصر عبد اللطيف حمزة
دار الفكر العربى الطبعة الأولى
- ٩ - زهرات مثورة فى الأدب العربى عبد الله عفيفى
الحلبى ١٩٣٢
- ١٠ - شذرات الذهب ابن العماد الحنبلى
القدسى ١٣٥١ هـ .

- ١١ - صبح الأعشى
دار الكتب المصرية
القلقشندي
- ١٢ - ظهر الاسلام
لجنة التأليف ١٩٤٥ م
أحمد أمين
- ١٣ - العمدة
التجارية
ابن رشيق
- ١٤ - قراضة الذهب
الفتح
ابن رشيق
- ١٥ - العربية
يوهان فك
- ترجمة محمد عبد الله دراز
- ١٦ - فتح العرب للمغرب
الآداب بالجماميز
حسين مؤنس
- ١٧ - الكامل في التاريخ
الأميرية ١٢٩٠ هـ .
ابن الأثير
- ١٨ - كشف الظنون .
الأميرية
ملا كاتب جلبي
- ١٩ - مسالك الأبصار
ليدن ١٨٧٠
الأصطخري الكرخي
- ٢٠ - المسلمون في جزيرة صقلية
المطبعة العربية بالجزائر ١٣٦٥ هـ .
أحمد توفيق المغربي
- ٢١ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب
مطبعة الاستقامة
الواحدى
- ٢٢ - معجم البلدان
ياقوت
مطبعة السعادة ١٣٢٤ هـ .

- ٢٣ — معجم الأدباء
دار المأمون
ياقوت
- ٢٤ — معجم المطبوعات
مطبعة مصر
يوسف سر كيس
- ٢٥ — مقدمة ابن خلدون
المطبعة الشرفية ١٣٢٧ هـ .
ابن خلدون
- ٢٦ — منهل الورد في علم الانتقاد
٢٧ — النقد المنهجي عند العرب
النهضة .
قسطاكي الحمصي
مندور
- ٢٨ — وفيات الأعيان
دار المأمون .
ابن خلكان

صفحة

٣٣	١٠ — توبة وندم
٣٣	١١ — دعابته
٣٤	١٢ — تدينه
٣٤	١٣ — خلقه العلمي وأمانته
٣٥	١٤ — معاصروه وأنداده
٣٩	١٥ — حساده
٤٠	١٦ — تلاميذه
٤١	١٧ — وفاة ابن رشيق

الفصل الثالث

جوانب ابن رشيق

٤٥	١ — ثقافته ومصادرها
٤٦	٢ — أساتذته
٤٩	٣ — قضية منافسة
٥٢	٤ — أوهام المترجمين له
٥٣	٥ — أثر المشرق في ثقافته
٥٧	٦ — قدرته على تمثل المعرفة
٥٨	٧ — شاعريته
٥٩	٨ — آثاره
٦١	٩ — شبهة وردها
٦٤	١٠ — ترتيب ما أمكن ترتيبه من آثاره
٦٤	١١ — كتاب العمدة

٦٤	١٢ - رفع الكتب إلى الحكام
٦٦	١٣ - عناية العلماء بالكتاب
٦٧	١٤ - قراضة الذهب
٦٨	١٥ - الأنموذج
٦٩	١٦ - رسالة كشف المساويء
٦٩	١٧ - القطعة من ديوانه

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن رشيق

١ - ابن رشيق الناثر

٧٠	رسالة
٧١	تحليل لظاهرة سلوكية
٧٢	الغزل والطيرة

٢ - ابن رشيق الناقد

٧٣	نقد وتحليل
----	------------

٣ - ابن رشيق الشاعر

١ - الوصف

٧٥	زراعة
٧٦	هلال رمضان
٧٦	بحر هائج
٧٧	الثريا
٧٧	فواكه وزهور
٧٨	رحلة

صفحة

٧٨	خال جميل
٧٩	مطلع الفجر
٧٩	الطبيعة في الشتاء
٧٩	أترجة
٨٠	غلط الليل
٨٠	الطبيعة
٨٠	طير أبابيل
٨١	مناجاة
٨١	تفاحة
٨١	ذكور الحجل
٨٢	هدية من هدايا الملوك
٨٣	في حمام

ب — الملح والنوادر

٨٣	إن شر اللواب
٨٣	الثريا
٨٤	بغلة سفواء

ح — الحكمة

٨٥	في الإغراض عن الجاهل
٨٥	لعنة الشيطان
٨٦	وشاورهم في الأمر
٨٦	تجربة وخبرة
٨٦	عزة وإباء
٨٧	الناس معادن
٨٧	عش عزيزاً
٨٧	حسن معاملة
٨٨	نصيحة
٨٨	حسن سياسة

ز - الشكوى

صفحة

١٠٠	حرقه الأدب
١٠٠	التأسي .
١٠١	ليلة قصيرة
١٠١	بموضة
١٠١	شكوى الزمان
١٠١	جفوة .
١٠٢	صحبة الناس .

ح - التعريض والهجاء

١٠٢	تعريض بكاتب بن هرون
١٠٣	اعتداء .
١٠٣	البرغوث
١٠٣	مفتاب .

ط - العتاب

١٠٤	عتاب القاضي جعفر
١٠٥	تلطف
١٠٥	رجاء .

ي - المدائح

١٠٦	يراعة ومداد
١٠٦	لادن الرياح
١٠٦	رايات .
١٠٦	وثن الملاحة



ك - الخمر

صفحة							
۱۰۷	من خمرية
۱۰۷	کما جاء بها ربه
۱۰۸	معتقة

ل - الشيب

١٠٨	يلق الغراب
١٠٨	الشيب أوفى من الشباب

٢- التوبة

دعاء ورجاء ۱۰۹

١١٠	المراجع
١١٣	الفهرست

رقم الإيداع	١٩٨٣/٣٠٢٥
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٤٧٦-٥

١/٨٢/١٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مجموعة نوابغ الفكر العربي

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربي في جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربي في العصر الحاضر من كل قطر وبلد ؛ فهي تعنى بالشعراء والكتاب ، كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد في كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين به وذوى الخبرة والدراية فيه ، فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعاني مبين الأغراض .

• اقرأ فيها :

- ١ - ابن رشد . ٢ - الجاحظ . ٣ - الشيخ نجيب الحداد .
- ٤ - محمود سامي البارودي . ٥ - ابن زيدون . ٦ - الشيخ ناصيف اليازجي . ٧ - إخوان الصفا . ٨ - بشار بن برد . ٩ - بديع الزمان الهمذاني . ١٠ - أبو الفرج الأصبهاني . ١١ - ابن الرومي .
- ١٢ - الفرزدق . ١٣ - السهروردي . ١٤ - الشيخ إبراهيم اليازجي .
- ١٥ - المتنبي . ١٦ - البحري . ١٧ - الحسناء . ١٨ - ابن قتيبة .
- ١٩ - جرير . ٢٠ - ابن المقفع . ٢١ - أبو حيان التوحيدي .
- ٢٢ - ابن سينا . ٢٣ - عبد الرحمن الكواكبي . ٢٤ - رفاعة رافع الطهطاوي . ٢٥ - خليل مطران . ٢٦ - ولي الدين يكن .
- ٢٧ - صفي الدين الحلي . ٢٨ - البهاء زهير . ٢٩ - جمال الدين الأفغاني . ٣٠ - تقي الدين بن حجة الحموي . ٣١ - الفارابي .
- ٣٢ - ابن رشيق القيرواني . ٣٣ - القاضي الجرجاني . ٣٤ - حسان ابن ثابت . ٣٥ - قاسم أمين . ٣٦ - ضياء الدين بن الأثير .
- ٣٧ - يعقوب صروف . ٣٨ - المسعودي . ٣٩ - أمين الريحاني .
- حسن العطار . ٤١ - الشريف الرضي .

